القهر الثقافي

سلاح الأسياد في ترويض العباد

طارق أحمد حسن

TAREK AHMED HASSAN

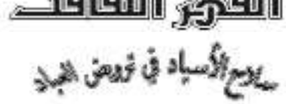

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

حسن، طارق أحمد
القهر الثقافي: "سلاح الأسياد في ترويض العباد":
دراسة نفسية/ طارق أحمد حسن
.– ط1 .– الإسكندرية: طارق أحمد حسن، 2015،
234صفحة، 14×20سم
الترقيم الدولي722 030 779 789 9
1– علم النفس الثقافي
أ– القهر الثقافي
"سلاح الأسياد في ترويض العباد"
153,4
رقم الإيداع/ 9642 **التاريخ:** 26/ 4/ 2015

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي والتدقيق اللغوي
محمد السخاوي

القهر الثقافى

سلاح الأسياد في ترويض العباد

طارق أحمد حسن

TAREK AHMED HASSAN

إهداء

إلى كل إنسـان مازال يتمسك
بحلمـــه البريء ... لم يفقد ذاته
داخل الزحام ... ولم يُصَدّقْ يومًا
أنَّ اللامعقول معقول.

طارق أحمد حسن

TAREK AHMED HASSAN

"إن استعباد فيروس القهر الثقافى للضمير

الإنسانى هو مصدر كل أنواع الاستعباد

التى تنتشر بين البشر."

طارق أحمد حسن

TAREK AHMED HASSAN

فهرس

مقدمة 9
1. قمة الهرم 13
2. إنى أرى الملك عاريًا................................... 18
3. أسيادٌ وعبيد 22
4. القهرُ الثقافى والوثن المقدس 27
5. أوثانٌ تقليدية................................... 31
6. التعثر................................... 39
7. حضارة حديثة................................... 50
8. سلطة جديدة................................... 53
9. أوثانٌ مبتكرة................................... 57
10. البحث عن مخرَج................................... 111
11. ترويض أفكار فرويد 115
12. ترويض أفكار داروين................................... 120
13. البحث عن مخرج مرة أخرى................... 125
14. الظروف الاجتماعية 127
15. جينات الأنانية وجينات الإيثار................... 131
16. التطور الهادف................................... 133
17. الكائن الحى يساهم فى تطوير ذاته........ 136
18. التطور لم يتوقف 140
19. الانتخاب الطبيعى والانتخاب الثقافى 143
20. الجهاز النفسى الثقافى................................... 147

TAREK AHMED HASSAN

21. فرويد وداروين مرة أخرى.......................... 154
22. القيم الأخلاقية المثبتة جينيًا 156
23. الخير والشر..................................... 159
24. لغز قابل للحل.................................. 162
25. الطريق إلى هرمجدون.......................... 168
26. جذور القهر الثقافى........................... 174
27. الأساطير السومرية والبابلية 182
28. الفكر المصرى القديم.......................... 190
29. بين استعباد أول إنسان وتحرير آخر إنسان... 198
30. مقاومة القهر الثقافى 202
المراجع ....
نبذة عن الكاتب ....
صدر للكاتب...

TAREK AHMED HASAN

مقدمة

مهما كانت ملامح الثقافة التى ننتمى إليها، ومهما كانت قناعاتنا العلمية أو الدينية، فإن معظمنا ببساطة شديدة يرى أن الإنسان عبارة عن مخلوق لديه قدراتٌ هائلة بالإضافة إلى احتياجات لا تنقطع. وإذا لم ترتبط هذه الاحتياجات بضوابط صارمة تحكمها فإن هذا المخلوق ربما يسلك سلوكاً شريراً ويُفسِدْ الأمور.

ولكن الضوابط المختلفة التي وضعتْ خصيصًا لكي تقوّم من سلوك الإنسان لم تقض في النهاية على المعاناة والظلم والفساد والجرائم والحروب منذ بداية التاريخ حتى الآن، وكان تفسير ذلك هو أن طبيعة الإنسان الشريرة تقاوم دائمًا الالتزام بالضوابط والمعايير.

لم يُقنع هذا التفسير كثيراً من المفكرين عبر التاريخ. وكانوا دائما يُلوِّحون بأن طبيعة الإنسان بريئة من التهمة المنسوبة لها، وأن كل متاعب الإنسان النفسية والاجتماعية ليست متأصلة فى

TAREK AHMED HASAN

طبيعته، ولكنها قادمة من الخارج.

إن الكثير من الاكتشافات العلمية الحديثة قد أيدت فكرة الطبيعة الخَيِّرَةْ للإنسان، مما جعل العلماء فى السنوات الأخيرة يلاحظون أن الكثير من الضوابط التى تأتى من الخارج تحمل بقصد أو بدون قصد فيروسات ثقافية تُفسِد عقل الإنسان.

والفيروسات الثقافية هي أفكار مشبوهة تستقر في ضمير الإنسان، وتتحكم في سلوكه، ثم تجعله ينسخها تدريجياً في ضمائر الآخرين.

هذه الدراسة تقوم على فكرة أساسية تفترض بأن هناك فيروس رئيسى أصاب الضمير الإنسانى منذ بداية الحضارة يمكن تسميته: "فيروس القهر الثقافى". وأن السلطة بكافة أشكالها هى المسئولة عن زراعة الفيروس داخل الضمير. وأن عملية رصد هذا الفيروس يمكن أن تقدم تفسيراً واضحاً لكل سلوك الإنسان على مستوى الفرد أو المجتمع.

إذا كان هذا صحيحاً، فإن الإنسان الذى نعرفه ليس هو الإنسان الذى ينبغى أن يكون، ولكنه إنسان

TAREK AHMED HASAN

متكيف مع الفيروس الساكن فى ضميره. وإن معظم متاعب هذا الإنسان ستختفى فى نفس اليوم الذى يتمكن فيه من تحرير نفسه من سيطرة ذلك الفيروس.

إن كل ما يأتى من الخارج يكون عرضة للاحتيال. والمقصود بذلك هو أن كل القيم الثقافية والمبادئ والمذاهب والمعتقدات والعادات والتقاليد التى تتجمع لكى تُشَكِّلْ المفاتيح التى تتحكم فى ضميرك قد مرت على أيادٍ غير أمينة قبل أن تصل إليك. إنها أيادى أصحاب المصالح، ومراكز القوى، ورجال السلطة، ورجال الدين، ورجال المال، والطفيلين، وغيرهم. وكل منهم قد أضاف إليها وحذف منها ما يتناسب مع مصالحه.

إن فيروس القهر الثقافى موجود داخل ثقافتك بقدر لا يقل عن تواجده داخل ثقافات الآخرين، وإنه المتسبب الرئيسى فى كل المشاكل التى تمر بها ، وإن عالمك يمكن أن يكون أفضل كثيراً إذا علمت ذلك. فإذا لم تمنحك تلك المعرفة القوة اللازمة لتغيير مصيرك، فإنها على الأقل سوف تمنحك

TAREK AHMED HASAN

الشجاعة الكافية لمواجهة هذا المصير. لأنك فى هذه الحالة سوف يكون لديك فرصة عادلة لكى تتجنب كل الطرق المُضَلِّلَة، وتبحث عن نفسك فى المكان الصحيح. وهناك سوف تستطيع التخلص من حِملٍ ثقيل كان يستنزف طاقاتك لحساب بشر آخرين ربما لم تلتق بهم مرةً واحدةً فى حياتك.

TAREK AHMED HASSAN

(1)

قمة الهرم

هل تابعت معى المسلسل التلفزيونى الذى يتناول قصة الإنسان الطيب ذي الطباع الحسنة الذى لا يعيبه إلا القليل من حالات الغضب والانفعال تعاوده من حينٍ إلى آخر تحت تأثير الضغوط الخارجية، ولكنه يعود بعدها إلى سابق عهده من الهدوء وحسن الخُلُقْ؟

هذا الإنسان يتعرض طوال أحداث المسلسل لموجات من الظلم الشديد، ويلجأ للقنوات الشرعية لاسترداد حقه، فيفاجأ بأن هذه القنوات أحياناً لا تنصف المظلوم، فيتحول فى نهاية المسلسل إلى وحش كاسر ينتقم من الجميع.

لاشك أنك تابعت مثل هذا المسلسل وتعاطفت بشدة مع البطل. وربما أيضاً ذرفتَ بعض الدموع لأنه يذكرك بحالة مماثلة شاهدتها بعينيك فى مسرح الحياة. إن معظم الأعمال الدرامية فى كل بلد

TAREK AHMED HASSAN

بمختلف الثقافات تتناول نفس الموضوع. ليس هذا فقط، بل إن الأدب والشعر والفن عموماً يتناولون هذا الموضوع بحريةٍ تامة.

ولكن القصة عادةً لا تنتهى بنفس النهاية التى يصل إليها مؤلفوا الأعمال الدرامية. فما يحدث فى الواقع هو أن الشخص الطيب الذى تعرض لظلمٍ فادح، لا يستطيع الوصول إلى من ظلموه، فيتجه إلى آخرين أبرياء مثله ويظلمهم. هؤلاء الضحايا يربون أولادهم على إحساس بالظلم مجهول المصدر، ويزرعون بداخلهم انفعالاتٍ شريرة رغم أنهم قد وُلدوا أبرياء مثل بطل قصتنا. وهكذا نلقى بسمومنا على بعضنا البعض وننسى أن السبب الأصلى هو السلطة التى قهرت إرادتنا عندما منحت الشرعية لعملٍ غير شرعى.

المشكلة هى إصرار الظالم على استخلاص اعتراف من المظلوم بأن ما يفعله هو قمة العدل. الظالم يقهر المظلوم ويكسر إرادته عندما يزرع فى ضميره أن كل ما يحدث هو الحق بعينه، وأن السلطة تدعم موقفه. وبالفعل فإن السلطة التى تستخدم القهر سلاحاً يضمن ولاءنا لها، لا تمانع من أن يقهر بعضنا

TAREK AHMED HASSAN

بعضاً فى كثير من الأحيان حتى تتوزع الخطيئة على أكبر عدد من الناس. بهذا تحصل على الشرعية التى تستخدمها من أجل المزيد من القهر.

السلطة تؤكد باستمرار أنها تحمينا من أنفسنا، وتقتطع جزءاً من الصورة يؤكد على سلوكنا الفوضوى وطبيعتنا الشريرة وشخصيتنا غير الناضجة. إنها تفترض مقدماً أن الإنسان عبارة عن طفلٍ شرير ثم تدفعه فى الاتجاه الذى يؤكد صدق فرضيتها.

ولكن ماهى نقطة الضعف فى موقف كل سلطة بحيث يجعلها تنزلق إلى هذا المستوى؟ الإجابة هى أن السلطة لم تكن هكذا طوال الوقت. لقد خرجت أصلاً من بين العامة، ولا تريد العودة للانضمام إلى صفوف العامة مرةً أخرى. إن أى سلطة بكل ما بين أيديها من قوانين وتشريعات وقدرات تنفيذية هائلة تحرص دائماً على شرط رئيسى يسبق كل واجباتها هو حماية مصلحتها الخاصة. إنها أيضاً تريد أن تستمتع بالمال والراحة والأمان.

TAREK AHMED HASSAN

ولكننا أيضاً لا ندافع عن أنفسنا كما يجب. إن الإنسان كثيراً ما يبدو راضياً بجنونه الجزئى سعيداً بنجاحه فى حماية نفسه من الجنون الكلى. وهو ينظر إليك مرتاباً رافضاً أى محاولة لهز التوازن الوهمى الذى يعيشه. إن الفرد الذى يخرج من المعركة خاسراً نصف عقله، يبدو فى النهاية سعيداً بنصف عقله الآخر الذى مازال سليماً.

لا تصدق كثيراً الفكرة الشائعة التى تزعم أن العيب فينا فنحن المذنبون، ولو طَبَّقنا الدين أو القانون كما يجب لما تعرضنا للمتاعب. هذه الفكرة قد روَّجَت لها السلطة لكى تُحَمِّلنا ذنوبها. فلا معنى أن تُلْقَى عليك المواعظ كل يومٍ لكى تهذب من نفسك الشريرة، بينما قوى القهر تضغط عليك من كل اتجاه لكى تفسد نفسك الخَيِّرَة.

إن كل الصراعات بين الأفراد أو الجماعات أو حتى بين الفرد ونفسه قابلة للسيطرة لولا الضغط الرهيب الذى تمارسه قلة من البشر تجلس فوق قمة الهرم وتتمتع وحدها بالمال والنفوذ. هذا الأمر يتكرر فى كل زمان ومكان منذ بداية الحضارة حتى اليوم.

TAREK AHMED HASAN

إن المخلوق الرائع ذي الإمكانيات الهائلة قد تم امتهانه من قِبَلْ إخوانه الذين فرضوا أنفسهم أوصياء عليه. وهو فى هذه الظروف، إما راضٍ بالقهر الذى يتعرض له خوفاً أو طمعاً، وإما مُغَيَّبْ لا يشم رائحة الخطر.

TAREK AHMED HASSAN

(2)

إنى أرى الملِكَ عارياً

قدم لنا المبدع الدانمركى كريستيان أندرسون قصة رائعة تبين كيف يسيطر الوهم على العقول والضمائر لدرجة أنه قد يُعَطِّلْ الحواس أيضاً، فيجعلنا لا نرى إلا ما تريد السلطة مِنَّا أن نراه.

القصة عنوانها "إنى أرى الملكَ عارياً". وهى تروى قصة ملك كان مولعاً بالثياب الجديدة. وذات يومٍ جاءه محتالان يدعيان أنهما نساجان، وأنهما مستعدان لصناعة ثوبٍ خاص للملك يراه الحكيم ويعمى عن رؤيته الأحمق. وأعجبت الفكرة الملك، فأمر من فوره بأن يبدأ الرجلان فى عمل الثوب، وأمر لهما بمبلغ باهظ من المال كى يستطيعا البدء في العمل. وقام النساجان المحتالان على الفور بنصب نولين، وانهمكا فى عملٍ وهمى، يديران ماكينة الخياطة ولا يضعان فيها شيئاً، ويخزنان الحرير الفاخر وخيوط الذهب الغالية التى أحضرها لهما الملك فى مكان لا يعرفه أحد سواهما. وطار خبر هذا الثوب فى أرجاء

المملكة. وبات الجميع فى شغفٍ كى يعرف كل واحد منهم مدى حكمة أو حمق صاحبه.

وجاء اليوم الموعود، وأعلن المحتالان أن الثياب جاهزة. وقرر الملك أن يكون هناك موكب كبير يطوف به المدينة وهو يرتدى الثوب الجديد. ودخل المحتالان على الملك وهما يحملان الثوب المزعوم. ففوجئ صاحب السعادة بأن أيديهما فارغه، واستنتج من ذلك أنه أول الحمقى لأنه لا يرى الثوب. فقهقه عالياً، وتظاهر بأنه يرى الثوب، وقال بسعادةٍ مصطنعة: "جميل جداً هذا الثوب. رائع عملكما أيها السيدان. هيا فلأرتدى الثوب وأخرج إلى الشعب المنتظر بالخارج."

وساعد المحتالان الملك على ارتداء الثوب الوهمى. وخرج الملك على شعبه عارياً، وطاف موكبه المدينة، والوهم والخداع يسيطران على أذهان الجميع. فالكل يهتف بإعجاب ويصرخ مستحسناً هذا الثوب البديع. لقد رأى الجميع الثوب الوهمى. فكل فرد يؤمن بحكمة الملك، ويؤمن بحكمته الشخصية المستمدة من طاعة الملك. الجميع

TAREK AHMED HASSAN

متكيفون مع القهر الثقافى وليس لديهم استعداد لرؤية الحقيقة حتى لو وصل الأمر إلى تعطيل حواسهم. واستمر الأمر على هذا الحال إلى أن صاح طفل صغير: "إنى أرى الملكَ عارياً". هنا فقط أفاق الناس من أوهامهم وتعلموا الدرس.

وهنا فقط أسمح لنفسى بالاختلاف مع الكاتب العظيم. فالناس فى الواقع لا يفيقون من الوهم حتى لو صرخ جميع الأطفال وزلزلت صرخاتهم الأرض تحت أقدامهم. الناس يتمسكون بالوهم مادام لا يوجد وهم آخر يحل محله. شئ ما قد دمر نصف عقولهم، ثم ربط بين مصير النصف المتبقى وبين العيش فى الوهم. هذا الشئ اسمه "القهر الثقافى".

العلم والدين والفلسفة والقانون، الفرد والمجتمع، الحكام والمحكومون، العامة والمثقفون، الضحايا والجناة، الجميع يتمسكون بالوهم. ولكن الفن وحده هو الطفل الصغير الذى لا يكف عن الصياح: "إنى أرى الملكَ عارياً".

TAREK AHMED HASSAN

إن الفنان يسبق دائماً الفيلسوف أو العالم لأنه يتحسس نبض المجتمع ويشعر بالقضية قبل أن يفهمها. لذلك فإنه يُعَبِّرْ عن قضايا المجتمع من خلال التعامل مع عواطف الإنسان وانفعالاته بعكس الفلسفة التى تخاطب عقله.

إن السلطة قد تعودت على احتضان الفنانين وتكريمهم لأنها لا تستطيع أن تصطدم بهم. إنهم بسطاء خرجوا من بين العامة، لذلك فهم أقرب إلى العامة من القانون والدين والعلم والفلسفة. لذلك تُركَ الفن ليكون وسيلة التنفس الوحيدة فى المجتمع المُعَرَّض للقهر. وإن الكثير من الأساطير الخالدة هى فى الأصل أعمال فنية تم تحويرها لمصلحة السلطة بعد أن عجزت عن إخفائها.

TAREK AHMED HASSAN

(3)

أسياد وعبيد

افترض معى أن الإنسان قد جاء إلى الدنيا حاملاً معه الحد الأدنى من القيم الأخلاقية، ولديه استعداد طبيعى لأن يدرك أن الخير هو الحق والعدل والرحمة والجمال والنظام والصدق والأمانة وغيرها. فهذه القيم مُسَجَّلة داخل الجينات الموجودة فى كل خلية من خلاياه. هذا الإنسان يتوجب عليه أن يضع المبادئ والقوانين والمواصفات والمرجعيات والعادات والتقاليد المستمدة من كل الخبرات التى يقابلها فى حياته بحيث تتفق مع القيم الخَيِّرَة التى فُطِرَ عليها.

إن المبادئ الثانوية التى يتم الوصول إليها بحرية تامة، والتى من الممكن تعديلها وتطويرها، هى مفاتيح الشخصية التى يجب أن تتفق مع المبادئ الأولية التى جاءت في طبيعة الإنسان، وإلا حدث خلل يمكن أن يؤدى إلى سلوكٍ مضطرب.

TAREK AHMED HASSAN

الآن تخيل معى أن أقلية من البشر قد حصلت على المال والقوة والسلطة والنفوذ ما جعلها تصل إلى مكانة لا يستطيع أن يصل إليها سائر البشر. إنهم الأسياد وباقى البشر هم العبيد. وإن عملية إنتاج القيم الثقافية لا يمكن أن تحصل على الشرعية اللازمة إلا من خلالهم. فى هذه الحالة سوف يظهر شرط أساسى لا يمكن إنجاز العمل بدونه هو مصالح هؤلاء الناس حتى لو تعارضت مع مصالح المجتمع.

إن كل السلوك المقبول وكل السلوك المرفوض يتم اختزاله فى حزمة من المبادئ الأخلاقية هى خلاصة تجارب حقيقية مر بها المجتمع. ولكن هذه المبادئ لا تأخذ قوة دفع حقيقية إلا عن طريق رجل القانون أو رجل السياسة أو رجل الشرطة أو رجل الدين أو رجل المال أو رجل العلم أو وسائل الإعلام. هؤلاء جميعاً يدينون بالولاء إلى السلطة سواء كانت ظاهرةً أو خفية. فقط القيم المطلقة المحفورة على جدران الجينات كالحب والعدل والحرية لا تخضع لهذه الحسابات.

TAREK AHMED HASSAN

ولكن مصالح أصحاب النفوذ قد تتفق وقد تتناقض مع الطبيعة التى فُطِرَ عليها البشر. إن الطبيعة البشرية تقبل بفكرة وجود الأقوى والأغنى والأكثر نفوذاً. ولكنها لا تقبل بفكرة وجود الغنى الفاحش بجانب الفقر المدقع، والقوة المفرطة بجانب الضعف المُذِلْ، والتسلط المتعالى بجانب الخضوع المستكين. إنها لا تقبل بفكرة أسياد وعبيد. إنه لمن الطبيعى أن توجد سلطة، ومن الضرورى أن تتمتع السلطة بالشرعية والقوة والحزم اللازمين لفرض الأمن والنظام. ولكن الاستبداد بالسلطة هو الأمر غير الطبيعى. هنا تحتاج السلطة إلى إجراءات إضافية لتمرير القيم التى تتفق مع مصالحها وإعاقة ما لا يتفق مع تلك المصالح.

أحياناً نكذب على الطفل من أجل مصلحته، ونكذب على الكبير من أجل مصلحتنا. ولكن الكبير يستطيع اكتشاف كذبنا بعكس الطفل الذى يصدقنا. هل من طريقة تجعل الكبير يظل صغيراً فيُصَدِّقْ كذبنا.

TAREK AHMED HASAN

وجدت السلطة المستبدة منذ القِدَمْ طريقةً مضمونة للسيطرة على العبيد من خلال السيطرة على ضمائرهم غير الناضجة. فاعتادت أن تقوم بخلط القيم الثقافية التى تتفق مع مصالحها مع القيم الإنسانية الأصيلة داخل باقةٍ واحدة، وتجعل ممثليها يرددونها بين الناس بلا ملل، وتفرض عقوبات رادعة على كل من يختلف معها، إلى أن تحولها فى النهاية إلى أمرٍ مقدس لا يقبل التعديل أو التطوير. كما أنها أيضاً لا تنسى أن تضيف إليها من الأمور اللاعقلانية ما يربك عقول البشر. وبالإضافة إلى ذلك فإنها تحشوها بعدد من الرشاوى التسلطية من النوع الذى يفتن القلوب، فتربط بين تسلط الأقلية الحاكمة على الأغلبية المحكومة، وبين تسلط الرجال على النساء، وتسلط رجال الدين على المؤمنين، وتسلط المعلمين على التلاميذ، وتسلط الآباء على الأبناء، بحيث يصبح كل شخص شريكاً فى اللعبة التسلطية.

وعندما يُقَدَّمْ هذا المنتج كله إلى الضمير الإنسانى باعتباره خلاصة ما أنتجته الثقافة البشرية،

TAREK AHMED HASAN

فإن هذا الضمير يلاحظ أن هذا المنتج لا يتوافق مع الطبيعة الإنسانية. ولكن الضمير الإنسانى لقلة خبرته وضعف موقفه وعدم ثقته بنفسه يستسلم للأمر ولا يُقَدِّر أنه أمام هجمة خارجية شديدة الشراسة صنفتها فى كتابى (الخير والشر)، وأطلقت عليها اسم "القهر". هنا يصاب الإنسان تحت هذا الضغط الرهيب بالحالة التى أطلقت عليها فى نفس الكتاب اسم "التعثر".

TAREK AHMED HASSAN

(4)

القهر الثقافى والوثن المقدس

"القهر الثقافى هو الفيروس الذى يأتى من الخارج حاملاً معه كل المبادئ التى تحمى مصالح أصحاب النفوذ، هو التوثيق الأخلاقى لقيم لا أخلاقية، هو المفاتيح الزائفة التى تُفرَّضْ على الشخصية، هو السبب الرئيسى فى تقسيم البشر إلى أسيادٍ وعبيد، إنه كسر الإرادة وسلب الحرية والاحتيال على الضمير."

"القهر الثقافى هو السلطة المستبدة التى تجعل الأمور تسير فى اتجاه عكس الطبيعة البشرية، هو الجهة التى تحتكر لنفسها امتياز معرفة الخير والشر، هو القوة الخفية وراء كل متاعب البشر، إنه يد قوية جداً تعبث بالعلم والدين والقانون وتُحَوِّل كلاً منهم إلى وثنٍ مقدس يجب طاعته بدون أى نقاش."

وما دمنا نحن خائفين من ذلك الوثن، عاجزين عن الإخلاص فى طاعته، أصبحنا مذنبين ومقيدين بخطيئتنا، والسلطة وحدها تتمتع بالحرية التى

TAREK AHMED HASSAN

سلبتها منا. إن السلطة بشتَّى صورها هى المسئول الوحيد عن القهر الثقافى.

يمكننا أن نعتبر القهر الثقافى أساساً مناسباً لفهم كل ما خفى من سلوك الإنسان ونحن مطمئنون تماماً. ورغم ذلك فإن عملية فهم القهر الثقافى نفسه ليست سهلة. والسبب فى ذلك هو أن القهر الثقافى خبيث يدَّعى أنه خَيِّرْ، وكَذَّاب يدَّعى أنه يملك مفاتيح الحياة، ومتطفل يتسلل إليك من خلال نقاط ضعفك، ومعدى يُلَوِّث الجميع، وفوضوى يستطيع خلط الأوراق وتعتيم الأمور، وبلطجى لا يتردد فى استعمال العنف، وجبان يحتمى فى المال والسلطة.

يختبئ القهر الثقافى دائماً داخل علاقة مقدسة كى لا يُكتَشَفْ أمره، ويستنفر العبيد لكى يهبوا للدفاع عنها. المهم أن تكون العلاقة غير قابلة للتعديل. لهذا فإن الارتفاع بمستوى العلاقات من التقديس إلى الاحترام هو الخطر الوحيد الذى تخشاه قوى القهر. وإن الفرق بين التقديس والاحترام هو نفسه الفرق بين الطفولة والنضج، أو الفرق بين العبودية والحرية.

TAREK AHMED HASSAN

إن الأوامر الخبيثة تُضَاف إلى القيم الإنسانية النبيلة ثم يتم حمايتها وتحويلها إلى وثن مقدس ذي مكانة فوق النقد. هذا الوثن يتم زرعه فى الضمائر قبل أن تنضج وتمتلك المقدرة على فرز الطيب من الخبيث مما يضع أمامها خطوطًا حمراء لا يمكن تجاوزها. إن كل جماعة ترى بوضوح وثن الجماعة الأخرى ولا ترى وثنها. فوثنها مقدس، أما وثن الآخر فهو عبارة عن قطعة من الحجر.

قد يأخذ الوثن عنواناً دينياً أو لا دينياً. وقد يحتوى على قوانين أو دساتير أو تشريعات أو عادات أو تقاليد أو قصص أو أساطير أو وصايا أو أمثال أو فلسفات أو نظريات علمية. فهو لا يُفَرِّقْ بين المصادر المختلفة مادام يحصل فى النهاية على الحماية اللازمة لجعل الناس يعمون عن رؤية الحقيقة. والحقيقة هى أنه يحمى مصالح قلة من البشر يتمتعون بالغنى الفاحش والقوة المفرطة ويحتاجون إلى توثيق ذلك أخلاقياً وتزويده بشرعيةٍ زائفة.

والناس لا ترى تلك الحقيقة الواضحة ولا تريد أن تراها، لأنها تخشى الوثن وتعلم أنه يحتوى على لغم

TAREK AHMED HASSAN

مُعَدْ للانفجار فى اليوم الذى يتم فيه اكتشاف كَمّ العدوانية والتسلط والأفكار اللامعقولة المزروعة داخله. ولكن الخوف لم يكن أبداً وسيلة للنجاة، فاللغم لا ينتظر حتى يأتى اليوم الموعود. إنه فى معظم الأحوال ينفجر بصورة مفاجئة فى تلك الجموع الخائفة التى ظلت سنوات طويلة تطوف من حوله.

TAREK AHMED HASSAN

(5)

أوثان تقليدية

إن فيروس القهر الثقافى الذى يغزو الضمير الإنسانى ينسخ فى داخله برنامجاً خبيثاً أو وثناً مقدساً غير مسموح بتعديله أو تطويره يحتوى على بعض أو كل البنود الآتية:

- البند الأول يُكَرِّس لفكرة تقسيم البشر إلى أسيادٍ وعبيد سواء تم ذلك بطريقةٍ صريحة أو مُقَنَّعة. فقد يأخذ الأمر شرعيةً دينية أو علمية أو قانونية، وقد يستمد شرعيته من الأمر الواقع رغم دعوات العدل والمساواة التى تبدو في الظاهر. وقد يتم السماح للعبيد أن يسيطروا على عبيد أضعف منهم مقابل استسلامهم لأسياد أقوى منهم. المهم هو أن يتحول الغالبية العظمى من البشر إلى عبيد يعيشون حياةً بائسة رغم أنهم لا يخرجون عن الإطار الذى رسمه أسيادهم. إن ثروات الأرض تُقَسَّمْ بالفعل بطرق غير عادلة تماماً بين السادة والعبيد. ويكتسب ذلك دائماً شرعيةً أخلاقية مثيرة للدهشة. إن الطبيعة

TAREK AHMED HASSAN

الإنسانية ببساطة تنفر من هذا الوضع. وإن الصراع بين الخير والشر هو صراع العبيد ضد من وضعوا أنفسهم فى مكانة أعلى من سائر البشر، وزرعوا الأوثان لكى تُعّمِي العيون وتزيد العقول المُضَلَّلة تضليلاً.

- البند الثانى يسمح للغنى بجمع المال بدون حد أقصى. فالغنى الفاحش والفقر المدقع أصبحا قَدَراً محتوماً وأمراً عادياً لم يُجَرَّمْ فى كل الثقافات رغم كل دعوات التكافل والتراحم الظاهرية. وفى نفس اللحظة التى يعانى فيها الجميع من تَعَنُّت الوثن وقسوته، يسمح الوثن بكل بساطة للغنى أن يزداد غِنَىَ على حساب الأغلبية الفقيرة. فجميع القواعد الأخلاقية دينية أو دنيوية تدعم شرعية احتفاظ الغنى بأمواله، وحقه فى تنميتها بدون حد أقصى مهما أدى ذلك إلى تباعد المسافة بينه وبين الفقير. إنها فقط تدعوه إلى العطف على الفقير ولا تلزمه بذلك من خلال نظام ضريبى صارم وإلا ما حظيت بدعمه أثناء فترة تكوينها.

TAREK AHMED HASAN

- **البند الثالث يعطى رجال السلطة امتيازات غير عادية. فطاعة وَلِىّ الأمر من أهم الفضائل. إن السمع والطاعة واجب مقدس. أما الحرية فهى ليست حرية قبول أو رفض المبدأ نفسه، ولكنها حرية الطاعة أو المعصية مع تحمل كل النتائج المترتبة على ذلك بما فيها التعرض للثواب أو للعقاب. ولذلك فإن السلطة لكى تدعم القوانين التى تنظم حياة العبيد، تشترط مقدماً المساواة بين الخير وطاعة السلطة، وبين الشر ومعصية السلطة. فالقوانين الدينية أو الدنيوية فى النهاية لا يمكن تفعيلها لو لم تحظَ بدعم السلطة.**
- **البند الرابع يضرب العقل بلا رحمة. فاللامعقول معقول، والعوالم الأخرى والمخلوقات غير المرئية والمعجزات غير الممكنة والفوضى كلها أمور عادية تماماً. والفرد يجب أن يتعايش معها كما لو كانت واقع. فالواقع الافتراضى يجب أن يحل محل الواقع الحقيقى. والعقل مُضَلِّل ولا يصلح للحكم على الأمور.**
- **البند الخامس يبرر للعدوانية ضد من يخالف السلطة. فالتعصب هو سيد الموقف. وقومك أفضل من**

TAREK AHMED HASSAN

سائر الخلق وذلك لحكمةٍ غير مفهومة. والآخرون أعداؤك. والسلطة وحدها تقرر من هم معك ومن هم ضدك.

- البند السادس يضمن السيطرة على المرأة من خلال الرجل. فالمرأة مخلوق تابع للرجل، وقد خُلِقَتْ فقط لإنجاب الرجال، وعليها طاعة الرجل مثلما يطيع الرجل السلطة، وللرجل حقوق فى الزواج والطلاق والإنجاب لا يمكن أن تتمتع بها المرأة، وكل مزاعم المساواة بين الجنسين تتحطم على صخرة الواقع.
- البند السابع يُثَبِّتْ الأمر الواقع ويمنع التغيير. فالواقع له شرعية مجهولة المصدر. والتغيير أو التطوير خيانة وكفر وضلال. وقد حرصت السلطة المستبدة على الترويج لفكرة أن النصوص دائماً فوق الواقع، والنقل أهم من العقل. إنه الخضوع اللاعقلانى للنصوص التى تحظى بمباركة السلطة ثم تبرير ذلك عقلياً. وتتساوى فى ذلك السلطة الدينية أو الدنيوية. وغالباً ما تستمد السلطة الدنيوية جزءاً كبيراً من شرعيتها من السلطة الدينية. ويرتبط ذلك دائماً باختلاط عناصر عدوانية وسحرية

TAREK AHMED HASAN

وتسلطية بالقيم الإنسانية الأصيلة تحتل مكانها فوق أى نقد. ومقابل ذلك فإن السلطة تقوم بحماية رجال الدين الزائفين مهما بلغت درجة تسلطهم على رقاب العبيد. إن القوة الحقيقية فى المذاهب الدينية تكمن فى جانبها الإنسانى بينما نقطة الضعف الحقيقية فيها تكمن فى جانبها التسلطى. وإن من يدافعون بشدة عن مذهب ويهاجمون آخر إنما يرون فقط الجانب الإنسانى فى مذهبهم والجانب التسلطى فى المذهب الآخر.

- البند الثامن يضرب المبادئ الإنسانية لأنها العدو الأول للتسلط. فالإنسان شرير بطبعه، والخطيئة تلازمه منذ البداية، وشخصيته غير قابلة للنضج و مُثَبَّتة على الحالة الطفولية، ولابد من قهرها حتى تستقيم. ذلك على الرغم من أن طبيعة الإنسان هى المصدر الوحيد لتلك المفردات اللغوية الخالدة: العيش، الحق، العدل، الحرية، الكرامة، الشرف، الأمانة، العمل، الشجاعة، النظام، المحبة، التسامح، الرحمة، الإخلاص، البناء، الإتقان، وغيرها. إن فكرة الأصل الشرير للإنسان قد فرضتها السلطة بالقوة من

TAREK AHMED HASAN

أجل أن تعطى شرعيةً لاستبدادها. وهى شرعية لاعقلانية روجت لها السلطة بمهارة على مر التاريخ حتى أقنعت العبيد أنفسهم أنهم لا يستحقون إلا أن يُستعبَدوا، ثم ادَّعت بعد ذلك أن لها تفويضاً إلهياً باستعباد البشر من أجل حمايتهم من أنفسهم، وصنعت من كل ذلك سوراً ضخماً يحجب رؤية الحقيقة. إن هذه الفكرة تمارس عملها فى قهر إرادة الإنسان والسيطرة عليه، وتكتسب الأنصار من السلطة ومن بين العبيد أنفسهم إلى أن تصبح هى الشئ العادى والمألوف. والفرد العادى يعانى من عقدة الذنب التى صنعها المتسلط لكى يقنعه بأنه عاصى وشرير بالضرورة. إن كل الأعمال الفنية والأدبية والأساطير التاريخية تنطلق من حالة إنسانية وتكتسب شعبيةً هائلة. إن كل مجهودات الفلاسفة والعلماء والأنبياء والمصلحين لها أساس إنسانى قبل أن تعبث بها يد القهر. لقد كانت هذه الأعمال تدعو دائماً إلى العيش والحق والعدل والحرية. ولكن بعد النجاح الكاسح فى البداية كانت الأمور تتجه تدريجياً بعيداً عن هذه الدعوة بحيث لا يتبقى منها إلا عنوانها. وحتى إذا ثار

TAREK AHMED HASSAN

العبيد ونجحوا فى القضاء على السلطة القديمة، فإن السلطة الجديدة يكون هَمَّها الأكبر هو التمتع بامتيازات لا تقل عن سابقتها وبالتالى فإنها لا تدعم من المبادئ الثورية إلا ما يحقق هذا الغرض. إن كل الثورات الحقيقية للشعوب كانت تقوم لأسبابٍ إنسانية. ولكن هذه الثورات بعد أن تهزم قوى القهر كانت تعود وتُسَلِّمْ مقدراتها إلى قوى قهر جديدة أو مُجَدَّدة. إن السلطة تعرف جيداً كيف تُفَرِّق بين الأسباب الإنسانية للثورات وبين الأسباب المذهبية الزائفة. وهى تخشى الأولى بشدة بينما تعرف كيف تتعامل مع الثانية لأن المنتمين للمذاهب الدينية أو اللادينية يتمتعون بنفس التفكير اللاعقلانى الذى تدعمه السلطة، ومن السهل إرهابهم أو رشوتهم رغم كل ما يتظاهرون به من تمسك بقيمٍ مقدَّسة.

- البند التاسع يزرع الرعب فى القلوب. فكل ما يصيبك هو عقاب على خطيئتك، وما أكثر العقوبات القادمة فى الطريق، حتى الموت لن ينجيك من العذاب. إن القهر بعد أن أحكم السيطرة على واقعك لا ينسى أن يطاردك فى الخيال.

TAREK AHMED HASSAN

- البند العاشر يجعل كل منا رقيباً على الآخر تحت شعار: الحماية - الدعوة - التذكرة - الموعظة - التدين - الوطن - الواجب.
- البند الحادى عشر يضمن القهر المبكر منذ الطفولة. فالتربية فى البيوت وفى المدارس يجب أن تقوم على التقديس والتواكل والتحفيظ والتخويف واللاعقلانية. إن المدرسة قد جُعِلت أداةً للقهر الدينى المبكر الذى يتحول إلى قهر اجتماعى وقهر علمى وقهر قانونى.
- البند الثانى عشر يراقب الحركة الثقافية ويضمن ألا تخرج عن الخط المرسوم لها. وكثيراً ما توفر السلطة حرية الرأى للعبيد إذا كانت قد ضمنت تماماً السيطرة على ضمائرهم بحيث يصلوا بأنفسهم إلى الرأى الذى حددته مقدماً. لذلك فإن الحركة الثقافية فى معظم الأحيان تتبع الأوثان المقدسة وتؤكد على فكرة الأصل الشرير للإنسان. وبالتالى يأتى كل يوم متطوع جديد ليعيد تفسير ما تم تفسيره من قبل. إننا ندور فى مكاننا دون أن نتحرك.

TAREK AHMED HASSAN

(6)

التعثر

بعد أن ينجح فيروس القهر الثقافى فى السيطرة على مفاتيح الشخصية، يتحول أعز ما نملك إلى وثن لا يستطيع أصدقاؤنا الاقتراب منه ومناقشته وتعديله وتطويره بالعقل والحب والموضوعية، وتبقى الساحة منفردة لأعدائنا كى يقوموا باختراقه باستخدام التبرير العقلى الذى يعتمد على الأفكار السحرية والمشاعر الفوضوية والضمير التسلطى. وبهذا نصبح أصدقاء أعدائنا وأعداء أصدقائنا، وتصبح معرفة الحقيقة هى آخر أولوياتنا. وفى الوقت الذى يُحَرَّمْ فيه على كل عاقل الاقتراب من الوثن، يتحدث أنصاف المجانين بكل حرية وينسبون كلامهم للوثن.

إن سحق شخصية الإنسان لحساب مقدساته ليس هو بر النجاة أو النهاية السعيدة. إنه مجرد بداية لا تمنعه من الانحراف والتردد والتمرد ثم استجداء العفو والمغفرة. بهذا يتحول الظلم الاجتماعى إلى ظلمٍ شرعى. ويتولد ثأر دفين بين الفرد والمجتمع. هذا الثأر

TAREK AHMED HASSAN

هو الذى يحول الفرد إلى كائن مغترب يبحث عن نفسه فى المكان الخطأ.

وحيث أن الفرد أضعف من أن يواجه قوى القهر وحده، فإنه يعيش صراعاً مع نفسه بدلاً من الصراع مع هذه القوى، مما يؤدى إلى توقف نمو شخصيته أو تعثرها.

"التعثر هو الحالة التى يتوقف عندها نمو شخصية الفرد المعرض للقهر الثقافى. إنه التثبيت الطفولى، أو نصف الجنون، أو التوازن الزائف. إنه الصراع الداخلى بين الفرد ونفسه البديل عن الصراع الخارجى بين الفرد وقوى القهر التى سلبت إرادته. هذا الصراع يسحق مبكراً شخصية الفرد، ويتحول إلى وباء ينتقل من فردٍ إلى آخر داخل المجتمع."

إن المتعثر الذى يفتقر إلى الإنتاجية قد يشغل نفسه بأن يخطف من الحياة أيّة إشباعات، ويمضى عاجزاً عن حب الغير وعن حب نفسه. إن انسداد السبيل أمام تفتح القدرات الانفعالية والفكريّة

TAREK AHMED HASSAN

للشخص المتعثر يجعل الطاقة التى سُدَّ السبيل أمامها تتحول إلى طاقة مدمرة للحياة.

إن الضمير التسلطى الذى يتميز به الفرد المتعثر مشغولٌ دائماً بالطاعة والواجب، ويعامل صاحبه بقسوة غير عادية، ولكنه يستطيع عند اللزوم توفير غطاء شرعى لإشباع الشهوات. ورغم كل ذلك فإن هذا الضمير لا ينجح أبداً فى الوصول إلى درجة معقولة من الرحمة والتسامح.

إن قضية العبودية هى الشغل الشاغل للإنسان المتعثر، بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من قضايا فرعية، كالتملك والسيطرة، والاستقامة والانحراف، والطاعة والمعصية، والتمرد والعقاب، والخوف والندم، ثم الهداية والخضوع والاستسلام والتكيُّف. بعكس الإنسان الناضج الحر المُنتِج الذى لا تشغله إلا قضايا الإنتاجية وما يرتبط بها من عمل وعزيمة وإرادة وتصميم ونجاح وإبداع وتقدم.

والإنسان المتعثر بقدر ما هو مزعج بقدر ما يستجيب بسهولة للرشوة التى تقدمها له شخصيات

TAREK AHMED HASAN

طفيلية تصنع له أوثانه وتخلط له الخير بالشر وتستعبده بطريقة غير مباشرة. وهو لا يلاحظ أبداً أن تلك الشخصيات تستعمل بلا تردد نفس الحرية التى سُلِبَتْ منه. وعندما يتحول التطفل الفردى إلى تطفل مؤسسى يتحول الطفيليون الصغار إلى خبراء زائفين يتدخلون فى العلم والدين والمال والقانون وكل جوانب الحياة، ويشّكلون نوعاً من التسلط الفرعي يعمل فى خدمة التسلط الرئيسى.

إن انتشار التعثُّر بشكلٍ وبائى يجعل الأمر يبدو وكأنه أمر عادى، ويجعل اللامعقول يبدو وكأنه معقول، ويحوِّل القهر أو التسلط إلى قَدَرٌ لا يمكن الفكاك منه. إن قوى القهر الإنسانية تعامل الفرد المتعثر كما لو كان عبداً محظوظاً يعيش فى الجنة إذا نال رضاها وعبداً عاصياً مطروداً من الجنة إذا أغضبها. والعبد فى هذه الحالة يعيش فى توازن وهمى تحت حماية خارجية مستسلماً تماماً لأقداره، فقد تم كبت كل صراعاته النفسية، واختلطت عنده المشاعر والأفكار والقيم الهدّامة بالمشاعر والأفكار والقيم البنّاءة، وتم تسليمه للخبراء الزائفين كى

TAREK AHMED HASSAN

يضمنوا المحافظة على الأمر الواقع عن طريق إعادة تبرير ما تم تبريره من قبل ألوف المرات.

فالعبد يجب ألا يستعمل الخصائص العقلية التى وُهِبَتْ له، من قدرةٍ على التفكير والفهم والتحليل والموضوعية، ويستبدلها بعقل سحرى تبريرى عاجز عن أداء دوره. العقل الذى هو أكبر نعمة لدى الانسان، والذى خُلِقَ حراً، يبدأ عمله بشرطٍ مُسبَقْ، هو أن عملية التفكير يجب أن تصل إلى نتيجة محددة سلفاً بواسطة قوة القهر الخارجية. بهذا يتجرد الإنسان مبكراً من سلاحه الرئيسى وهو عقله، ويصبح شغله الشاغل هو أن يجد لأوامر السلطة ومبادئها وآرائها تفسيراً يقنع به نفسه قبل الآخرين.

وتزداد خطورة التبرير عندما يشترك فيه عدد كبير من أفراد المجتمع يتحولون إلى قطيع يتبادل نفس الرأى بطرق مختلفة، ويتعصب بشدة ضد أى رأى مخالف، لأنه يدرك جيداً أن هذا الرأى المخالف صادر من قطيع آخر متعصب يلعب نفس الدور.

TAREK AHMED HASAN

ولقد أثبتت التجربة أن باب التبرير أوسع كثيراً مما نظن. فالمبرر الماهر يستطيع أن يقنعك بالشئ ونقيضه مستلهماً كل ذلك من النصوص المقدسة. المهم هو الجو المهيب والوقار المصطنع. إن الثقة الرهيبة التى يتمتع بها المبرر مستمدة أصلاً من الحرية التى صادرها من العبيد.

لهذا أصبح التبرير والتأويل علماً له قواعد وأسرار. ففى المرحلة الأولى يتمسك المبرر بالمعنى الحرفى للنص، ويستعرض مهاراته اللغوية فى ذلك، ولا يكترث إذا ما اصطدمت النتيجة مع العقل والمنطق، ويستدل على ذلك بأن العلم نفسه أثبت قصور العقل البشرى وبالتالى عجزه عن استيعاب الحكمة وراء النتائج التى يتم التوصل إليها.

وفى المرحلة الثانية يبحث المبرر فى المعنى وراء النص، وبالتالى تتوفر لديه حرية أكثر للوصول إلى النتيجة التى تم تحديدها مقدّماً. ويستعين فى ذلك بمجهودات من سبقوه فى هذا المجال ممن حصلت نتائجهم على مكانة مقدسة لا تقل عن مكانة النصوص الأصلية.

TAREK AHMED HASSAN

وفى المرحلة الثالثة يعود المبرر إلى شخصيات وأحداث تاريخية تم فيها طاعة هذه النصوص أو مخالفتها، حسب النتيجة التى يسعى إليها، على اعتبار أن هذه الشخصيات التاريخية لها حقوق ليست متوفرة فى هذا الزمان.

وفى المرحلة الرابعة لا يتردد المبرر فى تزوير نصوص أو أحداث تاريخية، فهو متأكد أن لا أحد سوف يبحث من ورائه.

وفى المرحلة الخامسة يلبس المبرر ثوب العلم والدين معاً، وينسخ ألوف الصفحات من المراجع العلمية، بالإضافة إلى ألوف أخرى من الصفحات من المراجع الدينية، ويلصقهما معاً، ثم يدّعى التطابق الشديد بين القسمين. هذا التطابق الذى لا يراه أحد سواه. فى هذه الحالة يضمن الحصول على الأجر مرتين، الأولى من هؤلاء المحسوبين على العلم، والثانية من هؤلاء المحسوبين على الدين. فلا أحد يقرأ أو يناقش أو ينتقد، والرجل وصل إلى مكانة علمية ودينية كبيرة، ويعلم ما لا يعلمه أحد.

TAREK AHMED HASSAN

وفى المرحلة السادسة والأخيرة يبحث المبرر فى الرموز والأرقام والأسرار والعلامات الخفية الموجودة خلف النص، والتى لم يلاحظها أحد سواه. وهنا يتم إلغاء العقل والمنطق تماماً. فالمبرر يسرح فى الخيال، ويصل إلى ما يشاء من النتائج المستفزة، ولا أحد يجرؤ على انتقاده، والأمر كله أصبح لا عقلانى.

بهذا اكتسب المبررون أهمية استثنائية، وصاروا هم الورقة الرابحة التى تدفع الأحداث فى أى اتجاه تشاء. وصارت تجارة الفتوى هى أكثر التجارة ربحاً مهما كانت لا معقوليتها. وصار على السلطة أن تدفع ثمن تحالفها التاريخى مع المبررين. فبعد أن كان المبرر خنجراً فى يد السلطة أصبح خنجراً فى ظهرها. وذلك فى نفس الوقت الذى ينهار فيه المجتمع تحت وقع الضربات الداخلية والخارجية التى لا ترحم.

ومع ذلك فإن العبيد الذين يتظاهرون بطاعة المبررين ليسوا تماماً بالغباء الذى يبدون عليه لأن معظمهم منافقون. هناك دائماً مُعَزِّز خفى يشارك فى توجيه سلوكهم. هذا المُعَزِّز قد يكون مصلحة مادية أو خوف من انكشاف خطاياهم أو خوف من

TAREK AHMED HASSAN

بعضهم بعضاً. لذلك فإن تعطيل العبيد لعقولهم، وتجاهلهم التام للوضع اللامعقول الذى يدعمونه، وطاعتهم التامة لقيادة القطيع، له فى معظم الأحوال مقابل خفى ليست له علاقة بما يبدو ظاهراً على السطح. بعكس هؤلاء الذين يحملون قيماً إنسانية حقيقية، ويدافعون عن أرضهم وأولادهم، ويطالبون بالعدل والحرية، ويرفضون الظلم والقهر والاستعباد.

إن نفس العبد الذى قضى عمره يسير وراء المبررين، ثم يطوف حول الوثن، ثم يعود ويذوب داخل القطيع، إذا ما أتيحت له فرصة لاستعمال حريته المفقودة، فإنه يستعملها استعمالاً أحمق. إنه يسرق ما كان من حقه أصلاً. فالحرية بالنسبة له صارت تعنى المعصية والمخالفة والخطيئة والعمل فى الخفاء والتظاهر بعكس ما ينتوى. وهكذا يؤدى القهر إلى الانحراف والفساد وكل ما من شأنه تدمير المجتمع، بعكس الحرية الأصيلة التى ترتبط بالوعى والمسئولية. ولكن قوى القهر لا تكترث بانهيار المجتمع. فالتاريخ يؤكد أن المجتمع المُحَطَّمْ يمكن تجميعه مرةً أخرى حول وثن جديد ، خاصة إذا ما تم

TAREK AHMED HASSAN

تقديم هذا الوثن على أنه المنقذ الذى طال انتظاره، والهداية التى يحتاج إليها الجميع.

ولما كانت متلازمة القهر والتعثر مُعدية لا يسلم منها بشر، فإنها تصبح أمراً مألوفاً يستخدم ذريعة لفكرة الأصل الشرير للإنسان، وحجة رئيسية للمزيد من القهر. فيصبح اللامعقول معقولاً، ويتحول دعاة الطبيعة الإنسانية الخيِّرة إلى أقلية مغتربة مُطالَبون بتقديم توثيق علمى يثبت دعواهم.

ولكن لحسن الحظ فإننا فى هذا الزمان نستطيع الحصول على هذا التوثيق. نحن اليوم نملك وسائل للفهم الصحيح للطبيعة البشرية. إن المستحيل قد أصبح اليوم ممكناً.

إن كل المعاناة التى يعيشها البشر تنتج من القهر الذى يتعرضون له من قِبَلْ بعض أخوانهم من البشر. ولكن القهر له توثيق أخلاقى. هذا التوثيق يعتمد أصلاً على الإلحاح، وعلى القوة، وعلى فرض الأمر الواقع، وعلى عوامل غيبية لا عقلانية، وعلى الخبث والخداع، وعلى خلط الأمور وتخويف البشر ودفعهم نحو التعثر، أو على رشوتهم وجعلهم شركاءً فى

TAREK AHMED HASAN

الجريمة. والثمن غالى جداً، وهو أن يتمتع الأقلية بثمرة جهد وتعب ومعاناة الأكثرية.

مهمتنا هى فتح الطريق أمام رفع المعاناة عن البشر وذلك بإلغاء هذا التوثيق. ووسيلتنا فى ذلك علمية وعقلانية تماماً. إن الوقت قد حان لنزع الشرعية عن أكبر جريمة فى التاريخ: جريمة قهر الإرادة الإنسانية.

TAREK AHMED HASSAN

(7)

حضارة حديثة

كانت النهضة الأوروبية عبارة عن ثورة إنسانية أقوى من أى ثورة سبقتها فى التاريخ. انطلقت هذه الثورة من فكرة أنه قد آن الأوان للإنسان أن ينضج ويسترد حريته وكرامته من أيدى هؤلاء الذين فرضوا من أنفسهم أوصياء عليه. وجّه العلماء والفلاسفة سهامهم إلى السلطة الدنيوية والسلطة الدينية باعتبار أنهما المسئولتان عن زرع الأوثان فى ضمائر البشر واستعبادهم. وقد حققت هذه الثورة بالفعل كثيراً من الإنجازات، ولكن ألاعيب السلطة كانت أيضاً أقوى منها فى أى وقتٍ مضى. إن كل الإنجازات والإخفاقات الرئيسية التى حدثت فى العالم منذ بداية النهضة الأوروبية حتى اليوم هى نتائج لهذه الثورة الكبرى.

نشر الأوروبيون حضارتهم فى كل مكان على وجه الأرض وحَوّلوها إلى حضارة عالمية. لقد حاولوا تحرّيَر العقل من الأوهام، وأطلقوا العنان لخيالهم،

TAREK AHMED HASSAN

وبحثوا فى كل المجالات بلا قيود، وتفهموا قيمة العلم ومعنى الإبداع، ودعوا إلى ترك التقاليد الدينية والثقافية القديمة، ونبذ الأفكار اللاعقلانية. كل هذا قد أدّى إلى انطلاق العلوم والفنون والفلسفة والرياضة وكل المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية بخطواتٍ واسعةٍ إلى الأمام.

لقد كانت الحضارة الأوروبية الحديثة إنسانية فى جوهرها، تؤمن بأن للإنسان قدراتٍ هائلة لم يستخدمها بعد، وأنه يستحق أن يأخذ فرصته ويستخدم حريته ويجد نفسه ويحقق ذاته. وكان التقدم الإنسانى الحقيقى الذى جنته الحضارة هو فتح باب التطوير والتعديل أمام العقل الإنسانى وما ينتجه من أفكار. فالأوثان القديمة كانت قد أغلقت هذا الباب تماماً بحجة القداسة والإيمان. وكان يتم الترويج دائماً للمساواة بين مصطلح التطوير ومصطلح الكفر والإلحاد. ولكن الأفكار الجديدة فتحت الباب أمام العقل كى يعمل بحرية. وأعلنت عن احترام القانون الذى يضعه البشر، وحق الشعوب فى سن القوانين وتعديلها وتطويرها داخل حدودها القومية، وحقها فى

TAREK AHMED HASSAN

اختيار حكامها وخلعهم أو استبدالهم عن طريق الانتخابات الحرة، وحقها فى تطبيق الديمقراطية واستقلال المجالس التشريعية والقضائية عن السلطة التنفيذية، وتجريم الرِّقّ، والمساواة بين البشر فى الحقوق والواجبات، وعدم التمييز بينهم على أساس الجنس أو العرق أو الدين أو المذهب أو اللون.

حقاً إن الحضارة قد تقدمت وحققت انتصارات لا يمكن إنكارها. والتسلط على الشعوب المتحضرة بالطرق التقليدية صار مستحيلاً. ولكن فلسفة القهر الثقافى استمرت سلاحاً فعالاً مادام العلم لم يرصدها بوضوح. فالحضارة الحديثة لم تدرك أن قوى القهر أيضاً قد نضجت واستوعبت الدرس فابتكرت طرقاً جديدةً للقهر لا تخطر على بال بشر. ولو كانت أوروبا قد أقامت حضارة إنسانية مكتملة الأركان، وتمكنت بالفعل من تحرير نفسها من فيروس القهر الثقافى لتبعها العالم كله. ولكن العالم بعد أن شاهد هزيمتها واستسلامها للقهر الثقافى فى ثوبه الجديد، صار يقترب منها خطوة، ثم يبتعد عنها خطوات.

TAREK AHMED HASSAN

(8)

سلطة جديدة

إن ظهور قوى القهر الدولية هو الحدث الأكثر تأثيراً فى كل التاريخ الحديث. لقد أثبتت هذه القوى أنها أكثر فهماً وأسرع حركةً وأشد تأثيراً من كل العلماء والمثقفين الذين خرجوا من رحم الحضارة الحديثة. لقد أهدت أوروبا للعالم حضارةً فريدةً تختلف تماماً عن كل الحضارات السابقة، ولكنها أهدتها فى نفس الوقت وسائل حديثة للقهر ذات خلفية علمية وثقافية كبيرة.

فى بداية النهضة الأوروبية لاحظ الحكام التقليديون القوة الاستثنائية التى وضعها العلم فى أيديهم، فأرسلوا حملاتهم العسكرية إلى الخارج يغزون بها البلاد المختلفة على الطريقة القديمة، ويجمعون المواد الأولية والعبيد ويرسلونهم إلى أوروبا. وكالعادة كان لابد لهذا العمل من توثيق أخلاقى، فكانت عملية نشر الحضارة بين الشعوب البربرية هى

TAREK AHMED HASSAN

الوثن المناسب. وبالفعل كان يتم نشر الحضارة بجانب أعمال القتل والإبادة ونهب الثروات.

وبعد أن نجح الأوروبيون فى استعمار العالم أصبحت الحروب بين بعضهم البعض لا تنتهى. وكانت تلك هى أشد الحروب بشاعةً بعد أن وفر العلم أسلحةً فتّاكة لا مثيل لها فى التاريخ. وكان الجنود يساقون للموت فى ميادين القتال متصورين أنهم بذلك يحمون الدين أو الوطن، ولكنهم فى الواقع كانوا وقوداً للصراع بين قوى القهر التقليدية وبين القوى الجديدة التى تريد إزاحتها والسيطرة على مناطق نفوذها.

فى ذلك الوقت كانت العبودية أمراً عادياً يحمل كل التوثيق الدينى والقانونى اللازم. إن كل الحضارات منذ بداية التاريخ بكل ما فيها من أسس دينية ولادينية وبالبرغم من نجاحها المستمر فى التعبير عن عواطفها الجياشة الرافضة لاستعباد الشعوب، لم تسن قانوناً واحداً يُجَرِّمْ الاستعباد إلا منذ عقودٍ قليلة. وهذا لم يتم إلا بعد توفير وسائل غير مباشرة للاستعباد أشد هولاً من كل الوسائل القديمة.

TAREK AHMED HASSAN

تسبب انتقال المواد الأولية الرخيصة والذهب والعبيد من المستعمرات إلى أوروبا فى حدوث رواج شديد فى الأسواق أدى إلى نمو النشاط الاقتصادى وظهور الطفرات التجارية والصناعية والتكنولوجية. ولكن ذلك أدى أيضاً إلى تراكم الأموال الطائلة فى عدد قليل من الأيدى وظهور أغنياء جدد ليست لهم أصول ملكية قديمة. ومن بين هؤلاء من احترف تجارة قديمة تجددت وأصبحت أكثر أهميةً من أى تجارةٍ أخرى، هى تجارة المال نفسه.

منذ ذلك الوقت أصبح تجار المال هم السادة الجدد للعالم. فحكام العالم لم يعودوا هم الحكام المعلنون. الحكام الحقيقيون صاروا رجالاً آخرين يقبعون فى الظلام ولديهم من الأموال الضخمة ما يُمَكِّنَهم من الالتفاف على كل القوانين المعلنة من أجل تحقيق مصالحهم الخاصة. فمادامت هناك قوة قهر فإنها لن تعدم وسيلة تحقق بها غايتها. أما باقى الناس فعبيد تحت مسميات مختلفة سواء كانوا أوروبيين متحضرين أو آخرين متخلفين.

TAREK AHMED HASAN

بهذا أصبحت مفردات لغوية مثل: القروض، الديون، البنوك، التأمين، الأقساط، الفوائد ، الضمانات، الرهون، الشيكات، الأسهم والسندات، أكثر أهميةً من مفردات لغوية أخرى من نوع: الزراعة، الصناعة، التجارة، المكسب والخسارة. وصار فن توليد المال من المال بدون الدخول فى أى نشاط إنتاجى هو الأمر الأكثر أهميةً على سطح هذا الكوكب. وتم ابتكار وسائل متجددة من أجل تحقيق هذا الغرض. وصار الحصول على توثيق أخلاقى لأكثر الأمور بعداً عن الأخلاق هو الشغل الشاغل للسادة الجدد. وأصبحت عملية نقل الأموال من جيوب السادة القدماء إلى جيوب السادة الجدد هى السبب وراء معظم النزاعات الكبرى على سطح الأرض.

TAREK AHMED HASSAN

(9)

أوثان مبتكرة

فى نفس الوقت الذى كان فيه الجانب الإنسانى من الحضارة يهاجم القهر الدينى الذى كان يروج لطاعة الملوك باعتبارهم مندوبو الإله على الأرض، كان يتم إعداد أوثان لادينية لها ملوك جدد يحكمون من وراء ستار. وصارت الأمور فى اتجاه يجعل فشل الأوثان الدينية هو المبرر لتسويق الأوثان اللادينية، ثم يجعل فشل الأوثان اللادينية هو المبرر لعودة الأوثان الدينية فى دورة إيمان وكفر لا تنتهى بعيداً عن طبيعة الإنسان الحقيقية وأخلاقه الإنسانية.

كل هذا أدّى إلى ضياع وقتٍ آخر من عمر الإنسان فى خدمة من نصبوا أنفسهم أسياداً عليه. إن هؤلاء الذين يفسدون الحياة يستغلون نتائج ذلك من أجل إعادة إفسادها مرةً بعد مرة.

لم تختلف الأوثان اللادينية كثيراً عن الأوثان الدينية. فالقيم الإنسانية الأصيلة كانت توضع على

TAREK AHMED HASAN

الغلاف، وتختبئ بداخلها كل القيم التى تُقَسِّم البشر إلى أسياد وعبيد. وهكذا بينما كانت الأوامر المشبوهة موجودة بمنتهى الجرأة والتحدى فى الأوثان الدينية، فإنها صارت مخبأة بخبثٍ شديد داخل الأوثان الجديدة. إن المتعصب لكل نوع من الأوثان يستطيع أن يرى فيروس القهر الثقافى بوضوح شديد مختبئاً داخل النوع الآخر من الأوثان خلف غلاف من المبادئ الأخلاقية القيِّمَة، ولكنه يعمى تماماً عن رؤيته داخل وثنه.

وقد تم الترويج لفلسفة مشبوهة تدعو إلى التعايش بين الثقافات المختلفة حسب مبادئ حرية العقيدة وقبول الآخر لأن الأخلاق نسبية ولا أحد يمتلك كل الحقيقة. ولكن الأخلاق ليست نسبية، والحقيقة لا يمكن تجاهلها دون دفع ثمنٍ باهظ، والعقيدة التى يروجون لها هى عقيدة القهر الثقافى الذى يتخفى فى رداء دينى أو فى رداء لا دينى. إن الكتالوج القادم مع الإنسان لا يحتوى إلا على حقيقة واحدة، وإن المعنى المقصود وراء تلك المزاعم هو أن تقبل كل ثقافة الثقافات الأخرى بكل ما فيها من

TAREK AHMED HASSAN

قهر. إنه وسيلة لتأجيل الصدام بين قوى القهر المختلفة واقتسام السلطة مؤقتاً إلى أن تحين الفرصة المناسبة وتنقض واحدة على الأخرى.

إن العداء القديم بين الثقافات القهرية المختلفة وبعضها البعض كامن فى النفوس. وفكرة الأخلاق النسبية لا تعنى الحرية للجميع، ولكنها تعنى القهر للجميع. إنها وسيلة رخيصة للالتفاف حول الأخلاق الإنسانية وعولمة القهر. بهذا يصبح الخير هو مجموعة من الطاعات، والشر هو مجموعة من المعاصى، وذلك بعدد الثقافات المختلفة المنتشرة على وجه الأرض. إن الأمر الذى بدأ بتحطيم الأوثان قد انتهى بتقبُّل فكرة تعدُّد الأوثان.

أما حرية الرأى فهى حرية أن يتكلم الجميع دون أن يسمع أحد. إنه حوار الطرشان. إن كل حوار ينتهى كما بدأ فلا أحد على استعداد للتنازل عن آرائه المقدسة. ولكن عندما تتكلم قوة القهر أو من يُمَثِّلُها يقوم الجميع فجأة بتقديم كل التنازلات المطلوبة.

TAREK AHMED HASAN

أما حقوق الإنسان فظهرت منها فى الأسواق نسخة مروَّضة تتحدث عن هذه الحقوق دون أن تجرؤ على تحدى قوى القهر. بل إن هذه الحقوق قد اُستخدِمَت فى كثير من الأحيان لتبرير التسلط والهيمنة والقتل والإبادة الجماعية. فالجيوش التى تهب لنصرة الشعوب المستضعفة مزودةً بالشرعية الأخلاقية والقرارات القانونية الدولية هى فى الواقع عبارة عن مرتزقة مأجورين مهمتهم نقل الثروات من جيوب إلى جيوب أخرى. والعبيد سوف يظلون عبيداً ماداموا لا يرون أبعد من أوثانهم!.

وقد تشكلت أعداد كبيرة من منظمات المجتمع المدنى وجماعات حقوق الإنسان تلبس ثوب التَحَضُّرْ ولكنها تدين بالولاء مباشرةً إلى قوى القهر الدولية، وتدعم التدخل الدولى فى الشئون الداخلية للدول بحجة حماية هذه الحقوق. وقد أدت هذه المنظمات دورها بكفاءةٍ منقطعة النظير، وأثبتت أنها أداة فعالة تشارك بقوة فى عملية إشعال الثورات التى تؤدى إلى تحرير الشعوب من الأسياد المحليين، وتُسَهِّلْ مهمة انتقالهم إلى سيطرة الأسياد الدوليين التى لا ترحم.

TAREK AHMED HASSAN

إنتقل إلى مقدمة الصفوف من الأوثان الحديثة، وثن رئيسى اسمه "الرأسمالية". هذا الوثن يحمل قيماً إنسانيةً عظيمة تُغَلِّفْ قيماً قهريةً متوحشة غير مسموح بتغييرها لأنها مخبأة بعناية وغير مفهومة.

فالرأسمالية نظام اقتصادي تكون فيه وسائل الإنتاج بشكلٍ عام مملوكة ملكيةً خاصة. ويكون الإنتاج وتحديد الأسعار وتوزيع الأرباح محكوم بالسوق الحرة ونظام العرض والطلب. وبما أن الرأسمالية تعزز الملكية الفردية فإنها تقلص الملكية العامة، ويوصف دور الحكومة فى ذلك على أنه دور رقابى وخدمى فقط. فالملكية الفردية قيمة إنسانية عظيمة تنشأ مع الإنسان وتعود عليه بالنفع. والبحث عن الربح بشتى الطرق هو من أسمى الفضائل مادامت هذه الطرق لا تخالف القانون.

وقد تطورت الرأسمالية متنقلةً من الإقطاع إلى البورجوازية إلى رأسمالية الكيانات الكبرى والشركات متعددة الجنسيات كما نراها اليوم. وانتقل مركز الرأسمالية من أوروبا إلى المستعمرة الأوروبية الكبرى: أمريكا.

TAREK AHMED HASSAN

الرأسمالية تدعو إلى العمل والإنتاج والربح الفردية والمنافسة والتملك بما يتفق مع الطبيعة الإنسانية الخَيِّرَة. كما أنها تروض المكتسبات الإنسانية للحضارة الحديثة وتستوعب أفكار الحرية الفردية والديمقراطية السياسية والدولة القومية والنظام الجمهورى والمجالس النيابية والفصل بين السلطات وسيادة القانون.

أما الشئ الأكثر أهمية المخبأ بعناية فائقة بحيث يجعل كل هذه المكتسبات عديمة القيمة ويجعلنا نصنف الرأسمالية كوثن، فهو سطوة المال وعدم وجود نظام ضريبى عادل مما يسمح بالتملك بدون حد أقصى. هذا هو الشئ الذى لا يتفق مع الطبيعة البشرية. إنه السم داخل العسل والأمر الذى أعطى شرعيةً للأغنياء الجدد كى يتمددوا ويجمعوا الثروات حتى أصبحت ثروة بعضهم تزيد عن ثروات شعوب كاملة. وقد أصبحت عملية حماية هذه الثروات وتنميتها أكثر أهمية من عملية حماية وتنمية الحضارة بأكملها. وفى نفس الوقت كان الفرد العادى يبيع نفس الحرية التى تعب أجداده فى الحصول عليها

TAREK AHMED HASAN

من أجل المال، وفى النهاية يخسر الاثنين معاً ولا يحصل إلا على بعض السلع التى تُستهلَك خلال وقتٍ قصير.

والحقيقة هى أن الشعوب فى الدول الرأسمالية المتقدمة تُصَدِّقْ أنها حرة ديمقراطية، ولا تتصور أنها مستعبدة باستخدام طرق أكثر خبثاً ودهاءً من كل الطرق القديمة. إنه من العجيب التصور بوجود حرية سياسية فى بلد يستطيع فيه رجل واحد شراء الحكومة والمعارضة والبرلمان. بل إن الأمر أخطر من ذلك، فقد اعتاد أصحاب المال على تربية عملائهم منذ الصِغَّرْ وإعدادهم لكى يتولوا المراكز المهمة فى كل المجالات عندما يحين الوقت المناسب، وهو ما يمكن تسميته: فن صناعة الخبراء الزائفين. والأمر الأكثر خطورة هو اكتساب كل هذه الأعمال لشرعيةٍ أخلاقية زائفة مستمدة من وثن الرأسمالية المقدس.

ولكن الثورات الإنسانية لم تقف عند هذا الحد. وتركزت كل الآمال الكبرى على الفلسفة الجديدة: الاشتراكية. إن الحلم يتحول إلى حقيقة. فها هم

TAREK AHMED HASSAN

العبيد يثورون فى كل مكان ويضحون بأرواحهم لكى يستردوا حقوقهم التى اغتصبها السادة لقرون طويلة. لقد بدأ عصر ما بعد الرأسمالية. إن كارل ماركس قد وضع يده على أصل كل الشرور من وجهة نظره وهو مبدأ التملك نفسه. أعاد ماركس النظر فى كل تاريخ الحضارة، واعتبر أن ذلك التاريخ يدور حول موضوع رئيسى هو الاقتصاد. إن تحويل قيمة التملك إلى وثن مقدس فى الدول الرأسمالية جعل البشر يتجهون نحو عبادة المال. وما السلطة السياسية أو الدينية إلا أوثان فرعية فى محراب المال. والآن بالعلم والفلسفة يتم فضح هذه الأوثان.

لقد دافع المؤمنون بالإشتراكية بشدة عن فكرة خلق اقتصاد مخطط مركزياً يوجهه حزب الدولة الحاكم الذي يملك وسائل الإنتاج. وأكدوا على تطلعهم نحو عدالة اجتماعية تُوَّلدْ حداً أدنى من مستوى المعيشة المرموق. وانتقل مركز الاشتراكية إلى روسيا، وهى الدولة التى كانت دائماً الضحية الأولى لمعظم النزاعات الكبرى فى المائة سنة الأخيرة.

TAREK AHMED HASSAN

ولكن قوى القهر الجديدة كانت قد سبقت أفكار ماركس وبدأت العمل على تحويل العلم والفلسفة إلى أوثان، حتى نجحت فى تحويل الاشتراكية نفسها إلى وثن كبير مقدس لديه كهنة يُمَثِّلون سلطة قهر جديدة. فالإشتراكية تدعو إلى العمل الجماعى والتعاون بهدف تحقيق الكفاية فى الإنتاج والعدالة فى التوزيع. هذا هو العسل، ولكن السم هو تأميم كل وسائل الإنتاج وجعلها جميعاً تحت إمرة الحزب الحاكم.

إن العبيد تحولوا إلى حكام ولكنهم لم يعرفوا إلا النموذج القديم فى الحكم، فقاموا بقهر واستعباد الشعوب بطرق أسوأ مما قام به ملوك وأباطرة العصور الوسطى. إن الملكية المشاعة هى أيضاً أمر لا يتفق مع الطبيعة الإنسانية، والحكام الجدد فشلوا فى إدارة البلاد بعد أن حكموها لعدة عقود، وفى النهاية قاموا بتسليم الثروة التى أمموها كاملةً إلى أسيادهم الرأسماليين. وكان ذلك تحت ذرائع أخلاقية جديدة مثل التصحيح والمكاشفة والدخول فى الاقتصاد العالمى والخصخصة واقتصاد السوق وغيرها.

TAREK AHMED HASAN

وبعد أن انتقلت الكتلة الاشتراكية طواعيةً إلى النظام الرأسمالى، آن الأوان لقوى القهر المحلية فى أنحاءٍ متفرقة من العالم أن تُسَلِّم خزائنها إلى قوى القهر الدولية. وصار عليها أن تقبل بالأمر طوعاً أو كرهاً. ومن أجل ذلك تم الترويج لقاعدة أخلاقية مريبة تَدَّعِى حتمية صراع الثقافات، وتصر على أن الحرب مُقدَّرةٌ على البشر، وأنه برغم كل ما فى الحرب من ويلات فإن كثيراً من الخير يأتى من ورائها. بهذا توضع كلمات كريهة مثل الحرب أو الظلم أو الدمار جنباً إلى جنب مع كلمات جميلة مثل السلم أو العدل أو التعمير. ثم بعد ذلك يأتى من يجد فى الأمر وسيلة جيدة للرزق، فيلبس ثوب الوقار، ويتحدث عن حوار الثقافات. ولكن الثقافات ليست فى حاجة إلى حوار أو صدام. كل ما تحتاج إليه هو تطهير نفسها من أوثان القهر الثقافى.

وكما هى العادة كانت المرأة دائماً هى الخاسر الأكبر من جراء القهر الثقافى. فالمرأة فى كل الثقافات وفى كل العصور لديها هدف إنسانى أكثر أهمية من كل الأهداف الإنسانية الأخرى هو

TAREK AHMED HASSAN

الأمومة. فالأمومة هى جزء من طبيعة المرأة، أما الأبوة فإنها تولد ثقافياً وتنمو بالتدريج لأن الأب لا يتفاعل مع ابنه إلا بعد أن يراه.

وقد استغل الرجل دائماً حاجة المرأة إلى أن تصبح أماً من أجل السيطرة عليها. فالمرأة يجب أن تمتثل للقواعد والقوانين التى يصنعها الرجل كى تثبت أنها إمرأة صالحة تستحق أن يجعل منها أماً، علماً بأن الرجل نفسه هو الذى يضغط عليها من كل اتجاه ويغويها لكى تخالف هذه القواعد فتستحق العقاب.

إن المرأة فى الدول المتخلِّفة يتم استغلالها أسوأ استغلال طبقاً للأوثان العلمانية، ثم يتم الحكم عليها بعد ذلك بأنها امرأة سيئة طبقاً للأوثان الدينية. أو قد يحدث العكس، فيتم حبسها وتقييد حريتها طبقاً للأوثان الدينية، ثم يتم الحكم عليها بعد ذلك بأنها امرأة متخلِّفة طبقاً للأوثان العلمانية. وهى مقابل هذا التناقض تتكيف بسرعة مع الظروف المختلفة، وتجد نفسها متورطة فى اللعبة التسلطية، ولا تضيع أى فرصة تستغلها من أجل السيطرة العكسية على الرجل متى أمكنها ذلك.

TAREK AHMED HASAN

وحيث أن الشعوب التى نبذت الملكية الفردية قد عوقبت بشدة إلى أن تابت وندمت ودعت ملوك المال لكى يعودوا ويحكموها، فقد تَسَلَّمْ ملوك المال معظم مصادر الثروة فى البلاد الاشتراكية بما فيها نساءها. لقد أُعتُبِرَ انهيار جدار برلين رمزاً لبداية التحول الديمقراطى فى الكتلة الاشتراكية. ولكن بعد أن انقشع الضباب تبين أن جدار برلين قد سقط فوق رؤوس النساء.

إن المرأة الروسية أو الأوروبية الشرقية التى هنأوها بعودة الحرية الضائعة لم تجد ما تفعله بهذه الحرية سوى أن تبيعها بأرخص الأسعار. وتحولت كل المناطق الحدودية بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية السابقة إلى مراكز للدعارة تُمتَهَنْ فيها النساء الفقيرات لكى تزداد ثروات الرجال الأغنياء. وبالفعل حصلت هذه العملية على كل الشرعية القانونية بالأضافة إلى كل التبرير الأخلاقى المطلوب. فالأمر عادى جداً وتضحية بسيطة يجب تقديمها من أجل الدخول فى جنة الرأسمالية الموعودة.

TAREK AHMED HASAN

ولا تتصور أن المرأة فى الدول الغربية المتقدِّمة فى حالٍ أفضل كثيراً منها فى الدول الأخرى. إنها تتعلم وتعمل وتنتج وتحاول أن تبحث عن حريتها وتثبت ذاتها طبقاً لمكتسبات الحضارة الحديثة. ولكن قيمة الحرية نفسها قد تعرضت لاختراق القهر الثقافى وتحولت إلى وثن كبير فتم الربط بين الحرية والانحلال الجنسى.

إن حق المرأة المكتسب فى الزواج من الرجل الذى تختاره خارج كل التقاليد المألوفة للزواج القائم على التسلط والخضوع، قد تحول إلى حقها فى إهانة جسدها دون أى ضوابط. كما أن وثن الرأسمالية البغيض قد جعلها مرهقةً تماماً مثل الرجل، تبحث عن المال بكل وسيلة، وترى النقود تمر من بين أيديها دون أن تستقر فى جيوبها. كما أن استقلالها المادى قد جعلها أيضاً مديونة مثل الرجل منذ الولادة حتى نهاية العمر.

وبجانب ذلك، فإنها تظل تبحث عن الرجل الذى يحقق لها احتياجاتها العاطفية دون أن تجده، فقد سحقته عجلات الرأسمالية التى لاترحم. لهذا، فإنها

TAREK AHMED HASSAN

تظل تتنقل من رجل إلى رجل متصورةً أن هذه هى الحريۃ التى بشروها بها، وفى النهايۃ تربى أولادها وحدها بدون رجل لأن الأمومۃ هى الأمر الوحيد الذى لا يمكن لأى فيروس اختراقه.

ولم يسلم العلم من الحرب الخفيۃ التى يشنها فيروس القهر الثقافى على كل ما هو إنسانى. فالعلم يجب أن يكون محايداً بلا أخلاق. ولكن هذا أيضاً هو وثن جديد وقاعدة أخلاقيۃ مشبوهۃ وُضِعَتْ فوق رؤوس القواعد الأخلاقيۃ البريئۃ، والهدف منها هو تحويل العلماء إلى خدم وعبيد لأصحاب المال.

إن العلوم الحديثۃ كلها كُتِبَ فى شهادة ميلادها أنها تمتنع عن الإخلال بهذه المصالح. إن فكرة استخدام العلماء كقرود داخل أقفاص تعمل لصالح قوى القهر موجودة فى كل المذاهب المتعصبۃ، ولكن لا أحد يمكن أن يصدق أن تنفيذ هذه الفكرة قد تم بالفعل. إن العلماء الأجلاء أصبحوا لا يختلفون كثيراً عن شعراء العصور الوسطى الذين كانوا يكتبون القصائد فى مدح الملوك.

TAREK AHMED HASSAN

إن التكنولوجيا صار من الطبيعى استخدامها فى البناء أو فى الهدم. والتقدم العلمى الهائل خلق تعقيدات فنية لا حصر لها. وكل عالم من العلماء يتخصص فى جزئية بسيطة داخل هذه الشبكة المعقدة، وبالتالى تنتفي عنه المسئولية الأخلاقية الناتجة عن استخدام هذه الجزئية فى منتج يدعم الحياة أو فى منتج آخر يدمر الحياة.

أما العملية التعليمية كلها فأصبحت تقوم على تلقين التلاميذ العلم وتدريبهم على حفظه على طريقة النصوص الدينية. والنتيجة هى عقول مُغَيَّبة أبعد ما تكون عن التفكير العلمى والموضوعية. ولا تظن أن هذا يتم فى الدول المتخلِّفة فقط، فالدول المتقدِّمة أيضاً لها نصيبها من القهر الثقافى داخل العملية التعليمية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن العلوم المشبوهة قد انتشرت، والفتوى التى تلبس رداء العلم أصبحت لا تختلف كثيراً عن الفتوى التى تلبس رداء الدين. ومادام السوق ممتلئاً بملايين الزبائن المغيبين عقلياً الذين لديهم استعداد مسبق لشراء مثل هذه البضاعة،

TAREK AHMED HASSAN

فلماذا لا يتم إرضاؤهم؟! إن قوى القهر تسخر من هؤلاء الذين يحاولون النجاة.

إن القهر يسيطر منذ الطفولة على العقول والقلوب والضمائر وعلى الأسرة والمجتمع ولا يمكن التخلص منه بمجرد اتِّباع بعض النصائح القَيِّمة. وإن العقل الإنسانى لا يمكن إعادة برمجته، فالأمر أعقد كثيراً من ذلك. العقل يمكن تطويره أو تحطيمه، ولكن من يَدَّعون مقدرتهم على إعادة برمجة العقل لا يختلفون عمن يبيعون الأعشاب لمرضى السكر، إنهم قساة القلوب يبيعون الوهم للبائسين. إن العقول التى تنجو من فخ التدين الزائف تتعرض مرةً أخرى لاختبار العلوم الزائفة، وإن الكثير من هذه العقول يرسب فى هذا الاختبار.

أما علم السياسة فإنه يقوم على وثن كبير يعلن أن المصالح فوق الأخلاق. ولكن عن أى مصالح يتكلم؟ وإلى أى أخلاق يشير؟ فالمصلحة الحقيقية هى فى الواقع جزء من الأخلاق الإنسانية. ولكن المصلحة فى السياسة هى بكل وقاحة مصلحة مشبوهة، والأخلاق هى أيضاً أخلاق مشبوهة.

TAREK AHMED HASSAN

وعلم الاقتصاد أيضاً لا يمل من الحديث عن المصلحة وعن حق الإنسان فى البحث عن الربح بكل السبل. وكأن الإنسان البسيط يتساوى مع المرابى الخبيث فى بحث كلٍ منهما عن الرزق.

إن النشاط الاقتصادى فى الدول الفقيرة هو فى كثير من الأحوال عبارة عن عمليات سرقة مقَنَّعة يتم فيها التلاعب بالمواصفات والمواعيد والأسعار بنيَّةٍ مبيَّتة. أما عقود الاتفاق فمن الأفضل تسميتها عقود الاختلاف لأن الجميع ينوون مخالفتها منذ لحظة التوقيع عليها. فهي عقود ناجحة من الناحية القانونية والدينية، ولكنها فاشلة من الناحية الإنسانية لأن بها شروطاً يعلم الجميع أن من المستحيل تنفيذها؛ لهذا فإن الطرفين قد وقعا العقد اليوم ليخالفوه غداً، ولا يكسب إلا من أعد نفسه جيداً لهذا الغد.

أما فى الدول المتقدمة، فإن الجميع يمتثلون للقانون بحيث تنبهر للوهلة الأولى من حجم الانضباط والتحضر الذى وصلت إليه هذه الدول. ولكن القانون نفسه يتم إعداده وتمريره وتوثيقه بطريقة تحقق

TAREK AHMED HASSAN

دائماً مصالح القلَّة من الأسياد الأغنياء على حساب مصالح الأغلبية من العبيد الفقراء.

كل القيم الاقتصادية الحديثة التى تتحدث عن حرية السوق و قوانين العرض والطلب تتحطم على صخرة الواقع المستمد من استيطان فيروس القهر الثقافى داخل جوهر الرأسمالية. فمادامت الرأسمالية تفتقر إلى وجود نظام ضريبى عادل يمنع تضخم ثروات البعض، فسوف يبقى النشاط الاقتصادى مبنياً على علاقات بين أسياد وعبيد ، وسوف تظل قيم الليبرالية الاقتصادية بلا معنى حقيقى.

إن علم الاقتصاد منذ ولادته يحتضن وثن الربا ، فيضيف شرعية علمية إلى الشرعية الأخلاقية الزائفة لعملية الربا. إن انتقال مراكز القوة من الملوك إلى المرابين جعل الربا أى فن إقراض المال بفوائد هو أهم وثن على الإطلاق فى النظام العالمى.

والآن دعنا نتحدث قليلاً عن الربا من وجهة نظر إنسانية لا دينية ولا علمانية. إن الادخار والاستثمار هم بلا شك من القيم الإنسانية النبيلة. كما أن

TAREK AHMED HASSAN

الغنى غير الفاحش مثل الفقر غير المذل هم من الأمور التى يمكن قبولها مادامت مقدرة الناس على العمل والإنتاج متفاوتة. إذن من مصلحة الغنى بل من واجبه إعادة تدوير أمواله الزائدة من أجل دعم عجلة الاقتصاد داخل المجتمع. ومن حقه أيضاً الحصول على فائدة مقابل ذلك. وهو فى سبيل تحقيق هذا الأمر يستطيع الانخراط مباشرةً فى مشاريع إنتاجية. كما أنه يستطيع أيضاً أن يُقرض أمواله لمن هم أجدر منه فنياً وإدارياً على القيام بتلك المهمة.

ولقد كان اختراع البنوك من أهم ما أنتجته العقول البشرية فى الحضارة الحديثة. والهدف هو إشراك أكبر عدد من الناس فى عملية التمويل. فالبنوك هى وسيلة لتجميع المدخرات من البسطاء والأغنياء معاً على شكل ودائع لها وضع قانونى يضمنه المجتمع، تمهيداً لإقراضها إلى من يستطيع استخدامها فى مشاريع إنتاجية تخدم المجتمع، بحيث ينال كل طرف من الأطراف نصيبه من الأرباح فى نهاية الأمر.

إن الحديث عن الربح الثابت الذى يتم الاتفاق عليه بين المُقرض والبنك والمقترض بغض النظر عن نجاح

TAREK AHMED HASSAN

المشروع من عدمه، أو الحديث عن الربح المتغير الذى يتسلمه المُقرض مع تعهده بالمشاركة فى الخسارة إن حدثت، هى مجرد تفاصيل لها ميزاتها ولها عيوبها.

فالنظام الأول "السندات" يضمن تمتع المقترض بالحرية الكاملة فى إدارة مشروعه مع تحمله لكافة النتائج. والنظام الثانى "الصكوك" يضمن رقابة المُقرض على كل كبيرة وصغيرة فى المشروع مع مشاركته فى تحمل النتائج سواء كانت ربحاً أو خسارة. ولابأس من وجود رقابة اجتماعية وحكومية وضمانات قانونية ومصروفات إدارية وفنية وغيرها فى كل نظام من النظامين. علماً بأن التكاليف الإضافية سوف تكون أكبر بكثير فى النظام الثانى عنها فى النظام الأول مما يشكل عبئاً إضافياً على المشروع. كما أن القيود الإضافية التى يفرضها المُقرض على المقترض فى النظام الثانى من خلال جهات رقابية جديدة ربما تُشَكِّلْ عاملاً فى إفشال المشروع لا نجاحه.

TAREK AHMED HASAN

لكن المهم فى الحالتين هو أن يوَّجَهْ القرض نحو مشاريع إنتاجية. أما عملية الإقراض الاستهلاكى فهى الطامة الكبرى.

إن عملية إقراض المحتاج والحصول على فوائد مقابل ذلك هى من أكثر الأمور بشاعةً على وجه الأرض. وهى تتداخل باستمرار مع كل المفاسد الأخرى. كما أنها هى العملية التى نهت عنها كل الفلسفات والأديان فى نسختها الأصلية على مر الزمان.

فالدعم الحقيقى للمحتاج يتم عن طريق توفير فرصة عمل له أو عن طريق زيادة أجره إذا كان يعمل بالفعل. أما إذا كان الأمر عاجلاً ولا يحتمل الانتظار، فعلى المجتمع أن يتعاون ويقدم له هبةً لا تُرَدْ أو قرضاً حسناً بدون فوائد.

وفرص العمل كانت سوف تزداد أضعافاً مضاعفةً لو كانت الأموال الضخمة التى تقدم للإقراض الاستهلاكى قد توجهت نحو الإقراض الاستثمارى. إن عملية تنشيط الأسواق تتم من خلال زيادة السيولة الحقيقية لا القروض. وهذا لا يحدث إلا عن طريق

TAREK AHMED HASSAN

زيادة فرص العمل ورفع مستويات الأجور. ولكن عملية الإقراض الاستهلاكى هى الأكثر ربحية بالنسبة للمرابين أنفسهم لأنهم فى هذه الحالة لديهم ملايين الزبائن. كما أن هؤلاء الزبائن المحتاجين لا يدققون كثيراً فى شروط الإقراض ولا يبالون بالقاعدة الوحشية التى تقول أنه كلما كان المقترض أكثر ضعفاً كلما تعين زيادة نسبة الفوائد مكافأةً للمُقرض على تعاونه وتعرضه للمغامرة بضياع أمواله لدى هذا العبد الفقير.

إن الأخلاق الإستهلاكية قد فُرضَتْ بقوة على المجتمع. والحصول على كروت الإئتمان أصبح أمراً مُيَسَّراً. والبضائع والمنتجات تعرض نفسها بإلحاح لا ينتهى. والناس تشترى ما لا تحتاج له بأموال لا تملكها أصلاً. والانتظام فى سداد القروض يؤدى إلى الحصول على قروضٍ جديدة قبل سداد القروض القديمة. والعجلة تدور.

والخلط بين الخير والشر هنا يحدث بين عملية إقراض المال من أجل مشاريع إنتاجية وبين عملية إقراض المال لعبيد متورطين. فالديون فى كثير من

TAREK AHMED HASSAN

الأحيان تتراكم لتزيد عن قيمة القرض الأصلى مع مرور الزمن وعجز المقترض عن السداد. كما أن نسبة الفوائد والعمولات والمصروفات الإدارية ترتفع ويصبح المقترض عبداً فعلياً لدى المُقرض بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وكثيراً ما تبدأ العملية بنية سيئة من الطرفين لأن كل منهما يتوقع بالنتيجة مقدماً. فربما أراد الأول الاحتيال على الثانى عن طريق مصادرة الأصول التى قدمها له كضمانات للقرض. وربما أراد الثانى الاحتيال على الأول بالتوقف عن سداد الأقساط وليكن ما يكون.

ومن أجل تقليل المخاطر ظهر نظام التأمين. إن الجميع يدفعون نِسَباً بسيطة من العقود التى يبرمونها إلى شركات التأمين، وهى بدورها تتعهد بالتدخل لإنقاذ من يسقط منهم. ولكن عندما يحدث سقوط جماعى لا تستطيع شركة التأمين تحمله وتسقط هى الأخرى. وفى هذه الحالة يجب أن تتحرك الحكومة لإنقاذ شركة التأمين، ولا تجد حلاً فى النهاية إلا بتقسيم الخسائر على الشعب عن طريق تقليل الإنفاق

TAREK AHMED HASSAN

الحكومى وزيادة الضرائب. عندها تكون هذه الأطراف قد اشتركت فى عملية احتيال تتحمل أطراف أخرى نتائجها. ولا تتعجب فإن مثل هذه الأمور تحدث بالفعل.

أما المثال الأكبر الدال على بشاعة الربا الاستهلاكى فهو إقراض الإنفاق على الحروب. هنا تصل قيمة الديون ونسبة الفائدة إلى معدلاتٍ مرتفعة جداً وتنتعش تجارة إقراض المال لدرجة أن الكثير من الحروب الحديثة قد أُعِدَّلها خصيصاً من أجل إفقار طرفى النزاع لكى تزداد ثروة طرف ثالث هو جهات الإقراض. وبالطبع فإن كل المطلوب من أجل إثارة حرب كبرى تؤدى إلى انتعاش تجارة المال هو إيجاد طريقة للتصادم بين نوعين من الأوثان المقدسة تكون ذريعة لتجميع العبيد وإرسالهم إلى حتفهم.

فالويل لك إذا كنت ضعيفاً ولديك مال. فى هذه الحالة سوف تجد نفسك بطريقةٍ غير مفهومة تنفق هذا المال على شراء السلاح الذى تقاتل به أخاك لأنه يقوم بنفس العمل.

TAREK AHMED HASSAN

والآن يتعين علينا أن نناقش منتجاً اقتصادياً عظيم الأهمية. إن فكرة الشركة المساهمة هى من أعظم ما أنتجته الحضارة الحديثة. هنا لا يحتاج صاحب المشروع الإنتاجى إلى الاقتراض على الإطلاق. كل ما عليه هو توسيع دائرة ملكية المشروع عن طريق إصدار عدد معين من الأسهم وطرحها للبيع فى سوق أُعِدَّ خصيصاً من أجل ذلك هو سوق الأوراق المالية أو "البورصة".

إن كل من يشرى سهماً يعتبر واحداً من مُلاَّك المشروع، وعلى إدارة المشروع أن تقدم كشف حساب سنوى لهؤلاء المُلاَّك أو الجمعية العمومية التى تُمَثِّلَهم، كما أن عليها أن تطلعهم على الميزانية العامة للشركة التى يتم مراجعتها بواسطة مراقب محايد مرخص له من قِبَلْ الحكومة. وفى النهاية عليها أن تجتهد، وتنجح فى عملها، وتقدم خدمة للمجتمع، وتحقق أرباحاً، وتأخذ النصيب الذى تستحقه، وتقسم الباقى على المساهمين حسب النتائج التى تختلف بين عامٍ وآخر. المهم فى الأمر هو أن إدارة الشركة ليست مُلزمةً بإعادة شراء الأسهم من

TAREK AHMED HASSAN

المساهمين الذين قد يضيق بهم الحال ويحتاجون إلى أموال، وبذلك فإنها تستطيع أن تعمل بحرية، وتوّسع من نشاطها، وتزيد من إنتاجها، وتوّفر فرص عمل إضافية، وتخدم المجتمع.

أما من يريد بيع بعض أسهمه، فعليه الاتجاه إلى سوق الأوراق المالية لكى يبيع هذه الأسهم إلى مساهمين جدد، وهناك يخضع الأمر لقانون العرض والطلب. إن الشركة الناجحة تتمتع بسمعةٍ جيدة، وموقفها المالى متوازن، وتوزع أرباحاً معقولة، لهذا فإن حالة أسهمها تتجه نحو الشراء، وسعرها يرتفع. أما الشركة الفاشلة، فإن حالة أسهمها تتجه نحو البيع، وسعرها ينخفض.

كل هذا جميل ويحمل فى داخله كل القيم الإنسانية النبيلة كالادخار والاستثمار والربح والاقتصاد والتكافل والعمل والإنتاج. إنه ابتكار جبار قدمته الحضارة الحديثة وساعد على تقدمها بقوة إلى الأمام عن طريق زيادة فرص تمويل المشروعات.

TAREK AHMED HASSAN

أين المشكلة إذن؟ لا تنسَ أننا فى حضارة تُقَسِّم البشر إلى أسياد وعبيد، وأن كل شئ قد أعد خصيصاً لخدمة الأسياد على حساب العبيد. وفى البورصة هناك قلة من الأسياد الذين يملك كل منهم ملايين الأسهم، وهناك كثرة من العبيد الذين يملك كل منهم عدد قليل من الأسهم. والأسياد قد يتنكرون فى زى بنك أو صندوق استثمارى أو غير ذلك، ولكنهم دائماً هناك. وعندما يشترى السيد عدداً كبيراً من الأسهم فإن سعر السهم يرتفع. وعندما يبيع السيد عدداً كبيراً من الأسهم فإن سعر السهم ينخفض.

لذلك فإنه بعيداً عن حالة الشركة الحقيقية والقيم الأخلاقية والإنتاجية التى تُمَثِّلها، هناك علاقة قهرية بين الأسياد والعبيد تجرى فى البورصة. فالعبيد يتبعون الأسياد مثل قطيع الغنم الذى يتبع الراعى، وكل واحدٍ منهم يحلم بالثروة المفاجئة التى تهبط عليه دون أن يبذل أى مجهود فى الحصول عليها سوى محاولة استقراء ما يقرره الأسياد. وهو فى سبيل ذلك لا يبالى بأن المال الذى يدخل جيبه سوف يخرج من جيوب عبيد آخرين يشاركونه نفس الحلم.

TAREK AHMED HASAN

كل ذلك يأخذ شرعية قانونية لا غبار عليها. فالعبيد قد دخلوا إلى اللعبة بإرادتهم، وهم فى النهاية مسؤلون عن أنفسهم. إن الشركة والمساهمين الحقيقيين يشتركون بالفعل فى عملٍ عظيم. ولكن السم مرةً أخرى يختلط بالعسل. فهؤلاء الذين يدمنون البورصة يلعبون لعبة مَيّسِرْ كبرى الهدف الوحيد منها هو سرقة الأموال من جيوب بعضهم البعض.

تبدأ المضاربة عندما يبدأ سعر سهم ما فى الارتفاع بطريقةٍ غير عادية. ويفهم العبيد بأن الأسياد قد ضخوا كميات كبيرة من النقود فى السوق مُرَكَّزَةً بصفة خاصة على هذا السهم، فيسرعون بالشراء مما يرفع من سعر السهم أكثر وأكثر. لقد دخلوا فى اللعبة بمحض إرادتهم. إنهم يعلمون أن السهم الذى ارتفع سعره بطريقةٍ غير عادية سوف ينخفض سعره فى يوم من الأيام بنفس الطريقة. ولكن الأسياد فقط هم من يحددون ذلك اليوم. إن كل واحد من العبيد يظن أنه من الذكاء بحيث يقرر البيع قبل أن يأتى اليوم الموعود، ولكنه يظل يؤجل قراره لكى يكسب أكثر فسعر السهم مازال يرتفع.

TAREK AHMED HASAN

وفجأة يبيع الأسياد كميات ضخمة من الأسهم بينما العبيد مازالوا فى حالة شراء، فيصيبهم الرعب، ويهرولون إلى البيع، ويهوى سعر السهم، ويكتشف الغالبية العظمى من حاملى الأسهم أنهم لم يعودوا يملكون أسهماً، ولكن قصاصات من الورق لا تساوى شيئاً. لقد استسلموا للغواية وعليهم الآن أن يتعايشوا مع الندم وانتظار اليوم الذى تعود فيه المضاربة على نفس السهم مرةً أخرى. ولكن فى أغلب الأحيان تتجه أموال المضاربة إلى سهمٍ آخر.

والعجيب أنه فى معظم الأحيان لا يملك اللاعبون فى البورصة معظم الأموال التى يقامرون بها، فالجزء الأكبر منها هو عبارة عن قروض أغوتهم بها البنوك طمعاً فى الفائدة الربوية. ولكن للأسف فإن هؤلاء اللاعبين أعدادهم كبيرة، والأموال التى يضاربون بها ضخمة للغاية. أما العالم الفقير فى الخارج، فهو فى أشد الحاجة إلى هذه الأموال التى لو وُجِّهَتْ لخدمة المجتمع لعملت تَحَوُّلاً كبيراً.

إن الإقراض هنا يبدو وكأنه إقراض استثمارى لا غبار عليه، ولكنه فى الواقع عبارة عن لعبة ميسِّر

TAREK AHMED HASAN

كبرى تشترك فيها البنوك مع المضاربين. وما يحدث بالفعل هو أن اللعبة تستمر بنفس الطريقة طالما أن البنوك مازالت مستمرة فى تقديم القروض. فالقروض الجديدة تستخدم فى تغطية الخسائر القديمة.

وفجأة يتوقف الإقراض. فالسادة العملاء أصبحوا عاجزين عن سداد أقساط القروض بصورةٍ جماعية. وتَعُّمْ الفوضى، ويصطدم اللاعبون ببعضهم البعض وهم يحاولون بيع ما لديهم من أسهم بأى سعر لكى يسددوا ما عليهم من أقساط للبنوك. لقد سُحِبَتْ الأموال من السوق ولم يكسب إلا القلة الذين تحسسوا طريقهم فى الظلام. أما أغلب اللاعبين فقد طُردوا من الجنة، والأموال قد انتقلت إلى خزائن الأثرياء، والبورصة قد انهارت، والخسائر سوف تَعُّمْ حتى تطال البسطاء الذين لا يعرفون طريق البورصة.

إن بعض الشركات تمثل ركناً هاماً فى اقتصاد الدولة التى تحتضنها. لذلك فإن التلاعب بسهم هذه الشركة يمثل ضربةً قاصمةً لاقتصاد تلك الدولة مما يجعل الفقراء هناك يزدادون فقراً. ومع ذلك فإن

TAREK AHMED HASSAN

الأمر يتكرر وينتقل من دولةٍ إلى دولة، ويُنظر إليه على أنه شئ عادى جداً مثل كل الأمور العادية جداً فى حياتنا والتى هى فى واقع الأمر عبارة عن نصف جنون.

وينتقل المقامرون بأموالهم وقروضهم من بورصةٍ إلى أخرى مدعومين بالقاعدة الرأسمالية المقدسة التى تؤكد على حق المستثمر فى الدخول إلى البلد التى يختارها وحقه فى الخروج منها بأمواله وأرباحه كاملةً فى الوقت الذى يروق له. فالمقامرون يلبسون ثوب المستثمرين ويقومون بممارسة لعبتهم بمعزل عن الاقتصاد الحقيقى. وقيمة الأسهم ترتفع إلى عنان السماء ثم تهوى إلى قاع الأرض. والأرقام الضخمة تُزَيِّن الشاشات العملاقة دون أن تؤدى إلى إضافة حقيقية للاقتصاد. والوسطاء والسياسيون والإداريون والخبراء الزائفون يتظاهرون بالجدية الشديدة كما لو كانوا داخل عجلة إنتاج حقيقية. ولا أحد يجرؤ على إعلان الحقيقة، وهى أن القهر الثقافى هو سيد الموقف، وأنه قد ربط بين المستثمرين والمقامرين داخل قيمة أخلاقية مقدسة غير قابلة للتعديل.

TAREK AHMED HASSAN

إنها عملية احتيال علنيّة تحدث فى وضح النهار، وتعتمد على غواية أسياد المال للعبيد. وعندما يستسلم هؤلاء للغواية يتم توقيع العقاب الجماعى عليهم مما يؤدى إلى طردهم من الجنة الوهمية. والحجة هى ذاتها فى كل مرة: "لقد استسلمتم للغواية بمحض إرادتكم. العملية قانونية مائة فى المائة. أنتم مازلتم أطفالاً لم تنضجوا بعد وتستحقون كل ما يحدث لكم."

وهكذا فإن قيمة أخلاقية كبيرة كالاستثمار تسقط فى اختبار القهر الثقافى الذى لا يرحم. والنتيجة دائماً هى عقاب جماعى حتى لو كان الراسبون فى الاختبار فئةً قليلةً من أفراد المجتمع. فالأسياد فى هذه الحالة لا يفرقون بين المذنب والبرئ، لأن البرئ يجب أن يدفع ثمن سلبيته وعدم تدخله لمنع أخيه من الاستسلام للغواية. وهكذا تحولت بورصة الأسهم من مركز لتمويل المشروعات إلى مكان ملائم للأسياد والعبيد كى يمارسوا معاً هواية اللعب بالمال.

TAREK AHMED HASAN

ثم تطورت الأمور وتم ابتكار بورصة للأوراق المالية الأخرى كالسندات والصكوك رغم أن هذه الأوراق فى الواقع هى عبارة عن قروض صريحة لا يجب أن تُباع أو تُشترى. ثم ظهرت بورصة العملة وبورصات المواد الأولية كالقطن والقمح والخشب والذهب والفضة والبترول، وكلها تعتمد على الحرية الاقتصادية وقانون العرض والطلب الذى يتحطم تحت ضغط من يملكون الأموال الطائلة عندما يتلاعبون بالأرقام والأموال بعيداً عن القيمة الحقيقية للسلع.

ولم يكتفِ عباقرة الاقتصاد بذلك، بل إنهم قد ابتكروا أوراقاً مالية جديدة جذبت جمهور المقامرين من بنوك وأفراد، واستطاعت أن تحصل على الشرعية القانونية فى كل أنحاء العالم على طريقة القهر الثقافى، وصارت هى اللعبة الأكثر خطورة فى عالم المال. هذه الأوراق الجديدة هى "المشتقات". وصار لهذه المشتقات سوق خاص يتم فيه تداول كميات من الأموال أكبر مما يتم تداوله فى كل الأسواق المالية الأساسية.

TAREK AHMED HASSAN

يقول الخبراء أن المشتقات هى أدوات مالية تُمَثِّل ترتيبات تعاقدية تُشْتَقْ أو تعتمد قيمتها على أداء أصل معين من أصول أسواق المال أو الأسواق السلعية. كلام غير مفهوم. ولكننا ببساطة يمكننا فهم المشتقات على أنها عقود بين أفراد يتواجدون فى السوق الجديد البعيد عن الأسواق الرئيسية. هؤلاء الأفراد يراقبون ما يحدث فى الأسواق الرئيسية ويتراهنون فيما بينهم على ما يحدث هناك. فإذا ما تغير سعر سلعةٍ ما بمقدار معين فى وقت معين فى السوق الرئيسى دفع طرف من طرفى الرهان مبلغ معين من المال إلى الطرف الآخر. إنه رهان يحدث فى مكان ما على أحداث تتم فى مكانٍ آخر. وهو عبارة عن عملية مقامرة صريحة. فالأموال التى يربحها طرف هى نفسها الأموال التى يخسرها الطرف الآخر. ولكن عباقرة القهر الثقافى استطاعوا أن يجدوا للأمر شرعية أخلاقية عجيبة.

إنهم يقولون أن هذا السوق يتم فيه تبادل المخاطر الناجمة عن تقلبات الأسعار فى السوق الأصلى. إن المبلغ البسيط من المال الذى يدفعه طرف إلى آخر فى هذا السوق هو المقابل المادى للتغير السعرى أو

TAREK AHMED HASAN

المخاطرة التى حدثت فى السوق الأصلى. بمعنى أنك إذا كنت مشتركاً فى السوق الأصلى وتخشى ضياع أموالك نتيجة حدوث تغير مفاجئ فى الأسعار، فإنك يجب أن تشترك أيضاً فى سوق المشتقات، فإذا ما ربحت هناك خسرت جزءاً من ربحك هنا، وإذا ما خسرت هناك عوضت جزءاً من خسارتك هنا. وبهذا يكون سوق المشتقات له هدف أخلاقى نبيل هو بيع وشراء المخاطر الموجودة فى السوق الأصلى.

ولكن الأمر فى الواقع هو عملية قمار رسمى وقانونى تجتذب تريليونات الدولارات من أموال العالم، وتشترك فيها البنوك والأفراد فى كل مكان بكل وقاحة. إنهم يلعبون بالأموال وينقلونها بين جيوب بعضهم البعض. وطبعاً فإن البنوك تقرض بسخاء الأفراد الذين يشتركون فى هذه اللعبة بينما تدقق بشدة قبل تقديم قروض تتجه نحو مشروعات إنتاجية. إن لعبة أسياد وعبيد تتم فى هذا السوق على أبشع صورها. لقد وصل القهر الثقافى إلى ذروته.

إن أى انتعاش أو انكماش اقتصادى يحدث فى أى مكان فى العالم له علاقة بطريقةٍ أو بأخرى

TAREK AHMED HASAN

بالمضاربات التى تحدث فى الأسواق المالية. وأقرب مثال على ذلك هو الأزمة المالية الكبرى التى تفجرت فى سوق العقارات فى الولايات المتحدة عام 2008 ثم انتشرت لكى تلقى بظلالها على العالم كله. لقد كانت تلك الأزمة عبارة عن عملية احتيال كبرى حدثت فى وضح النهار واشترك فيها مندوبون من العالم كله. إن الجميع كانوا لصوصاً وضحايا فى نفس الوقت. وإن مرور هذه الأزمة بلا عبرة حقيقية يبين إلى أى هوّة سحيقة يتجه بنا هؤلاء الذين تطوعوا لقيادة العالم.

فقد بيعت ملايين المنازل فى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق تقديم قروض ربوية إلى زبائن ممن يحتمل أن يتوقفوا عن سداد الأقساط. فالأسرة الأمريكية عادةً تحلم بشراء منزل؛ لهذا فإن الزوج والزوجة يكدحان لسنواتٍ طويلة كى يدخرا نسبة من ثمن المنزل ولتكن الربع مثلاً. هذه تعتبر مقدمة معقولة تؤهلهما للحصول على قرض طويل الأجل بالقيمة المتبقية من الثمن. وبعد ذلك فإنهما يظلان يعملان باقى عمرهما لكى يسددا أقساط القرض

TAREK AHMED HASAN

مضافاً إليها الفوائد. إنهما يبيعان حريتهما من أجل شراء حرية أولادهما فى المستقبل. وهما فى سبيل ذلك يدققان جيداً فى مواصفات السلعة التى يشتريانها، ويقومان بعملية مقارنة الأسعار ونسبة الفائدة حتى يصلا إلى أفضل العروض.

أما هؤلاء الذين دخلوا فى اللعبة فوضعهم مختلف. إنهم لا يملكون أصلاً مقدمة معقولة يسددونها فى البداية، وليس لديهم عمل مضمون ودخل منتظم، ويريدون الحصول على السلعة التى لا يستحقونها، ولا يفكرون فى المستقبل، ولا يدققون كثيراً فى الأسعار والفوائد المرتفعة والمصاريف الإضافية والعمولات. كما أنهم يعتمدون بصفة أساسية على تأجير العقارات التى اشتروها كى يقوم المستأجرون بتسديد الأقساط نيابةً عنهم. هؤلاء يسمون فى الثقافة الشعبية المصرية (كواحيل) ليس لديهم ما يخسرونه، كما أن أغلبهم مهاجرون جدد ربما جيئ بهم خصيصاً من أجل هذا الغرض. والوسطاء قد سهلوا لهم كل الأمور، وسلموا لهم المنازل بدون أن يدفعوا المقدمة المطلوبة، فكل شىء سوف يضاف إلى

TAREK AHMED HASSAN

القرض كما لو كان جزءاً من الثمن الأصلى الذى لا ضابط يحكمه إلا مبدأ حرية السوق وقانون العرض والطلب المقدس. والبنوك السخية تدفع بدون الكثير من التساؤلات المزعجة.

إن القرض يضمنه العقار نفسه، حيث يتم مصادرة العقار فى حال التوقف عن سداد الأقساط. ولكن سعر العقار غير ثابت ويخضع لقانون العرض والطلب. والعقار الذى يتهافت (الكواحيل) على شرائه يرتفع سعره إلى عنان السماء. ولكن نفس العقار عندما لا يجد من يشتريه ينهار سعره ولا يصلح لأن يستمر ضامناً حقيقياً للقرض.

هنا تكمن المشكلة ويظهر بوضوح تأثير التلاعب بالقواعد الأخلاقية. فقد غُلِّفَتْ هذه العملية بهدف أخلاقى كبير هو مساعدة هؤلاء الأخوة على الاندماج فى المجتمع الذى يعيش على القروض. وقامت البنوك بتمويل هذه المبيعات الضخمة. وجنى المرابون والتجار والمضاربون والوسطاء والإداريون أموالاً طائلة.

TAREK AHMED HASSAN

إن الأموال السهلة فى يد الفرد الخطأ تُفسِد المجتمع، ويتم إنفاقها على الاستهلاك غير الراشد والمِلذّات، وعلى إثارة المشاكل والنزاعات بين إناسٍ أصابهم الغرور، مما يشكل لغزاً كبيراً أمام إناس عاقلة مازالت ترى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة للحصول على المال.

وكانت البنوك قد توسعت أيضاً فى إصدار المشتقات المالية والرهونات المقابلة لهذه الديون، وعرضتها للبيع فى بنوك العالم المختلفة حتى يتم توزيع المخاطر على أكبر عدد ممكن من الأفراد. والزبائن أقبلت على الشراء بنفس سوء النية وطمعاً فى الربح السهل وباستخدام قروضٍ جديدة.

فالجميع يبيعون ويشترون أوراقاً لا قيمة لها بأموالٍ لا يملكونها أصلاً يضمنها عقار موجود فى مكانٍ بعيد تديره عائلة بائسة لا تدرى شيئاً مما يحدث من حولها.

وتضخمت المشتقات ووصلت إلى قيمة تساوى أضعاف القيمة الأصلية للديون بفضل إقبال الزبائن

TAREK AHMED HASSAN

عليها. فالربح السهل يعمى العيون رغم أن أبعاد اللعبة معروفة للجميع. إنها ليست المرة الأولى كما أنها لن تكون المرة الأخيرة، ولكنها بالتأكيد كانت المرة الأكثر ضخامةً فى التاريخ.

وهكذا كانت المبيعات تتزايد. وأسعار المنازل كانت ترتفع مشكِّلةً فقاعةً وهمية توحى بانتعاش كبير لا يعبر عن الواقع. والأموال السهلة كانت تُسَيِّل لعاب إناس آخرين ترددوا كثيراً ثم قرروا الدخول فى اللعبة. وبالتالى كان يدخل كل يوم لاعبون جدد إلى الساحة. وتجاوز الأمر حدود الولايات المتحدة. واشتركت بنوك أجنبية كثيرة فى اللعبة وغامرت بأموال مودعيها بهدف الحصول على الربح السهل الذى يصعب الحصول عليه فى بلادهم.

وفجأة توقف الإقراض. فقد هرب المستأجرون بعد أن عجزوا عن دفع الإيجارات المرتفعة، وبعد أن تحول الكثير منهم إلى مُلاَّك أغواهم نفس الوسطاء الذين أغووا من سبقوهم. فلماذا يستأجرون؟ ومن السهل عليهم أن يصبحوا مُلاَّكاً بأموال لم يتعبوا أصلاً من أجل الحصول عليها. وتوقف الكواحيل بصورةٍ

TAREK AHMED HASSAN

جماعية عن السداد ، وسُحِبَت أعداد ضخمة من المنازل ولم تعد تجد مشترين جُدُدْ، وانهارت الأسعار، وخسرت البنوك على مستوى العالم الكثير من أموال مودعيها.

إن هذه الأموال الضخمة التى تم التلاعب بها لكى تنتقل بصورة مُنَظَّمَة من جيوب الفقراء إلى جيوب الأغنياء هى نفسها الأموال التى كان يجب أن تشارك فى مشاريع إنتاجية يحتاج إليها المجتمع. والمُنتَج النهائى، وهو المنازل الفاخرة التى لا تساوى قيمتها إلا جزءاً بسيطاً من الأموال المهدرة، لم يكن الكواحيل أصلاً فى حاجةٍ إليها. كل ما كانوا يحتاجون إليه هو مشاريع إنتاجية توفر لهم فرص عمل محترمة وشقق صغيرة تأويهم.

ولكن انتظر فالأمر لم ينته عند هذا الحد. إن البنوك تضمنها الحكومات. كما أن الحكومات تضمنها الشعوب. إذن على الحكومات أن تتدخل وتتحمل الخسائر عن طريق برامج الإنقاذ الوطنى، ثم بعد ذلك عليها أن تُقَسِّم الخسائر على الشعوب عن

TAREK AHMED HASSAN

طريق برامج التقشف وزيادة الضرائب ورفع الدعم عن القطاعات الفقيرة من المجتمع.

وهذا أيضاً يحمل توثيقاً أخلاقياً. فالشعوب المتحضرة قد أعَدّت مسبقاً برامج لتحقيق التكافل بين أبنائها فى حالات الأزمات. أما عملية استغلال هذا التكافل لسرقة الشعوب فلا يمكن منعه. ولكن الواقع هو أن هذا التكافل هو نوع من العقاب الجماعى للشعوب التى لم تجد طريقة لمنع بعض أبنائها من الاستجابة للفتنة والتهام التفاحة المُحَرَّمَة.

لقد تجمع اللاعبون فى غرفةٍ مظلمة، ثم ألقِيَت عليهم النقود من فتحةٍ فى الجدار. وأسرع كل منهم بالتقاط أكبر كمية ممكنة، وعَمَّتْ الفوضى المكان، واصطدم اللاعبون ببعضهم البعض، وسقط من سقط، وحمل معظم النقود هؤلاء الذين يستطيعون الرؤية فى الظلام، وعادوا إلى بيوتهم سالمين. وبعد ذلك توقفت اللعبة، وأحصِيَت الخسائر، وتم تقسيمها على المساكين الذين بقوا خارج الغرفة عقاباً لهم على صمتهم إزاء سلوك إخوانهم الذين يلعبون داخل الغرفة.

TAREK AHMED HASAN

كل هذا كان يحدث فى الدول الديمقراطية المتقدمة التى لديها رفاهية الاشتراك فى اللعبة الربوية. ولكن لا تتصور أن هذه الشعوب لا تضيق بالقهر الثقافى أو لا تدرك أنها تتعرض لعمليات احتيال كبرى. ولا تُصَدِّقْ أن الاستمتاع بالحرية والديمقراطية هو ما يجعلهم صامتين. إنهم رغم قبولهم الرشوة وانشغالهم بالتحرر الجنسى والعادات الاستهلاكية صامتون فقط خوفاً من الشرطة والجيش مثلما يحدث فى أى بلدٍ مُتَخَلِّفْ.

لهذا فإن الشعوب التى تعانى من نتائج الأزمة المالية كان عليها إذن أن تغمض عينيها عندما ترى حكوماتها ترسل الجيوش إلى المناطق الغنية بالنفط كى تنهبها لتعوض خسائرها. ولا مانع من أن يأخذ الأمر عندئذ عنواناً أخلاقياً زائفاً جديداً هو: مساعدة الشعوب على الانتقال الديمقراطى. فقد تم تحويل الديمقراطية هى الأخرى إلى وثن مقدس. وهكذا نرى أن المشاكل كلها مترابطة، والعالم قد تحول إلى قريةٍ صغيرة تعمل كلها فى خدمة القهر الثقافى.

TAREK AHMED HASAN

إن العامل المشترك في أحداث انهيار الأسواق المالية هو قرار وقف الإقراض. ولكن قبل ذلك كانت هناك فترة انتعاش وهمى كبيرة تسبب فيها قرار سابق بالتوسع فى الإقراض. فمن هو صاحب هذه القرارات؟

لكى نفهم ذلك يجب أن نلقى نظرة على أهم منتج اقتصادى يُفتَرَّضْ أنه قد ساعد على تقدم الحضارة والبعد عن الفوضى والعشوائية فى الأمور الاقتصادية. إنها البنوك المركزية.

إن تعريف البنك المركزى كما قد تجده فى أى كتاب جامعى يمكن أن يكون كالآتى: "البنك المركزى هو أحد مؤسسات الدولة التى لا تخضع لتوجيهات حكومية. وهو المسؤل عن مراقبة النظام المصرفى للدولة بهدف تعزيز النمو الاقتصادى."

وتشتمل مهام البنك المركزى على ما يلى:

- صياغة وتنفيذ السياسة النقدية.
- إصدار العملة الوطنية.
- مراقبة الجهاز المصرفى.

TAREK AHMED HASSAN

- إدارة نظام المدفوعات.
- تنظيم الائتمان والقروض.
- إدارة احتياطى العملة الأجنبية.
- تحديد سعر الفائدة.
- إصدار تراخيص البنوك.

ولكن فلسفة البنوك المركزية لا يعرفها الكثيرون ويمكن تلخيصها كما يلى:

إن كل البنوك المركزية فى العالم قد وِلدَتْ تحت رعاية وإشراف البنك المركزى الأكبر فى العالم وهو المصرف الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى. لذا فإن كل بنك مركزى عليه أن يتبع السياسات التى يضعها الاحتياطى الفيدرالى بكل صرامة وإلا طُردَتْ الدولة التى يُمَثِّلُها خارج النظام الاقتصادى العالمى، وربما أُعلِنَت عليها الحرب أيضاً.

الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى قد وِلدَ بعد فترة من الاضطرابات فى الشئون الاقتصادية فى العالم فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تخلُ من استعمال القوة العسكرية. والسبب فى ذلك هو

TAREK AHMED HASAN

إصرار ملوك المال الجدد على إنشاء البنك الذى قُدِّرَ له أن يولد لكى يتحكم فى الاقتصاد العالمى.

إن قصة القهر الثقافى أو الظلم الشرعى أو التوثيق الأخلاقى لمبادئ لا أخلاقية التى نحاول توضيحها فى هذا الكتاب تتجلى فى أوضح صورها فى هذا الموضوع. فالعالم يجب أن يستمر مُنَظَّماً على طريقة الأسياد والعبيد. وإن تَحَكُّم أسياد المال فى البنك الذى يتحكم فى الاقتصاد العالمى يرفعهم فوق مستوى البشر. أما سياسات البنك فهى عبارة عن وثن مقدس يتضمن مبادئ إنسانية عظيمة مضافاً إليها بطريقةٍ غامضة بعض المبادئ التسلطية غير القابلة للتعديل وُضِعَت خصيصاً لكى تحمى مصالح هؤلاء الأسياد.

إن أى بنك مركزى هو السيد الذى يصدر الأوراق المالية من العدم. وقصاصة الورق التى بين أيدينا ومكتوب عليها "مائة جنيه" هى فى الأصل لا تساوى شيئاً، وقيمتها تتوقف على مدى إيماننا بالسيد الذى يصدرها. والسيد يُقرض الأوراق المالية للعبيد كى يستخدموها كوسيط فى عملية التبادل التجارى ثم

TAREK AHMED HASSAN

يعيدونها مضافاً إليها فائدة ربوية يحدد هو نسبتها. فالبنك المركزى هو أساس شرعية الربا. والبنوك التى تقترض منه تعيد إقراض النقود للعبيد أو للحكومات بفائدة تزيد قليلاً عن الفائدة التى تدفعها له كى تحصل على عمولتها. والعبيد يعودون ويقرض بعضهم بعضاً النقود مع إضافة فائدة ربوية جديدة، إلى ان تصل النقود فى النهاية إلى من يحتاجها فعلاً لكى يستخدمها فى عملية التبادل التجارى. والبنك المركزى بعد أن يسترد نقوده يعود ويقرضها للعبيد مرةً أخرى فى دورات لا تنتهى.

إن كل البنوك المركزية فى العالم والعملات التى تصدرها تتبع البنك المركزى الأكبر فى العالم وهو المصرف الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى وعملته التى يصدرها وهى الدولار. إن الدولار هو العملة التى تمثل القوة الاقتصادية الأولى فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية. وكل عملة تصدرها البنوك المركزية فى العالم يجب أن تُقَدَّرْ قيمتها كنسبة مئوية من الدولار لأن الدولار أيضاً هو العملة التى تضمن كل العملات.

TAREK AHMED HASAN

وحماية الدولار لباقى العملات ليست عشوائية ولكن لها شروط. فيجب أن يحتفظ كل بنك من البنوك المركزية باحتياطى معين من الدولار. كما أن البنوك المركزية لا يمكن أن تطبع أوراق عملة جديدة إلا فى حدود معينة وإلا فقدت قيمتها بالنسبة للدولار. فقط الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى يستطيع وحده أن يطبع عملة كما يشاء لأنه يطبع من العملات ما يكفى حاجة العالم كله وليس الاقتصاد الأمريكى وحده. إنه الكبير الذى لا يوجد من هو أكبر منه فى عالم المال لكى يحاسبه.

إذن فقيمة أى عملة بين أيدينا تعتمد على مدى ثقتنا بها، وهى ثقة مستمدة أصلاً من ثقتنا بالدولار الذى ترتبط به. ولو سحبنا هذه الثقة لانهار النظام العالمى من أساسه، ولكننا لا نفعل ذلك.

وهكذا فإن الجميع دائنون ومدينون لبعضهم البعض ليس بأدوات الإنتاج الطبيعية، ولكن بالممثل الشرعى لها وهو الدولار، الذى هو أصلاً ملك الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى، الذى يكتسب أهميته من خلال إيمان الناس به أو بالقوة التى وراءه.

TAREK AHMED HASAN

ولكن إدارة ذلك البنك تتوارثها عدة عائلات أمريكية كبرى، ولا يحق لأحد بما فى ذلك حكومة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها التدخل فى هذا الأمر لأى سببٍ من الأسباب، لأن هذا هو أحد أهم الأسرار المقدسة فى الرأسمالية.

والمصرف الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى لا يصدر العملة فقط، ولكنه يتحكم فى السياسة النقدية فى الولايات المتحدة الأمريكية. هذه السياسة هى الوثن المقدس الذى يجب أن تتوافق معه كل السياسات النقدية فى كل البنوك المركزية فى العالم.

هذه السياسة النقدية تقوم أساساً على التحكم فى كمية العملة المعروضة فى السوق بما يفترض أن يخدم مصالح العباد بطريقتين: الأولى هى التحكم فى سعر الفائدة، والثانية هى التحكم فى شروط الإقراض. ولا تتصور أن سلطة إصدار العملة والتحكم فى سعر الفائدة وشروط الإقراض هى بالأمر الهين. إن هذا قد يتوقف عليه تقدم أو إفلاس دول، وإشعال أو

TAREK AHMED HASSAN

إخماد حروب، وتحرير أو استعباد شعوب، ونمو أو أفول حضارات.

إلى هنا وكل شىء يمكن قبوله. فهؤلاء الكبار قد صنعوا نظاماً متقناً لتصريف أمورنا الإقتصادية يريح بالنا ويبتعد بنا عن الهوى ويتركنا نتفرغ للعمل والإنتاج. ولو استعملنا عقولنا الإبداعية وإرادتنا الحرة ما وصلنا إلى نظام أفضل من ذلك.

ولكن الاحتياطى الفيدرالى فى إدارته لشئون العالم المالية لا يتبع سياسة السيد الرحيم بعبيده، أو حتى سياسة الملك المستبد العادل، ولكنه يتبع أكثر السياسات قهراً وخبثاً فى التاريخ، وما أكثر الأمثلة التاريخية الدالة على ذلك. إن سماح المصرف الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى بالتوسع فى الإقراض كان هو دائماً السبب الرئيسى فى الظروف التى تسبق الأزمات، كما أن قراره بوقف الإقراض كان هو دائماً الإعلان الرسمى عن انهيار الأسواق. هذا الانهيار يرافقه باستمرار سقوط كيانات اقتصادية وإفلاس دول وإفقار شعوب وإعلان حروب.

TAREK AHMED HASAN

وقيام المصرف الأمريكى بذلك ليس بالأمر الجديد، بل هو جزء من سياسته التى يتبعها منذ نشأته، والتى تنبع من فكرة السيد القاسى الذى يفتن عبيده لكى يقعوا فى الخطيئة، ثم يقوم بتوقيع العقاب الجماعى عليهم.

تبدأ الدورة الاقتصادية بتسهيل شروط الإقراض. هنا تزداد الأموال المعروضة فى السوق وتنتقل من يدٍ إلى يد، فتبدأ الفتنة وتكثر الانحرافات والمضاربات والنزاعات، فالأموال تصل بكرمٍ شديد إلى من يقامرون بها. وبعد أن ينجح الأثرياء فى إضافة أكبر كمية من المال السهل إلى خزائنهم يبدأ غضب السيد ويقرر وقف الإقراض وبالتالى سحب الأموال من السوق. فالأموال التى تعود إلى السيد كأقساط لديون سابقة لا تخرج مرةً أخرى فى صورة قروضٍ جديدة. إنها أصلاً أموال المصرف الاحتياطى الفيدرالى يقرضها أو يتوقف عن الإقراض متى يشاء، فتعود الأموال لتتكدس داخل خزائنه ولا تخرج مرةً أخرى.

ولكن العبيد فى الخارج فى أشد الحاجة إلى تلك الأموال. فتبدأ الأزمة المالية وينكمش الاقتصاد،

TAREK AHMED HASSAN

ويعجز كل عبد عن سداد ديونه لدى العبد الآخر. هنا يواجه العبد خطيئته، ويندم على فعلته، وتشتد معاناته، ويستجدى العفو والمغفرة. فإذا ما جاء العفو، تبدأ دورة اقتصادية جديدة لا تختلف عن الدورة السابقة.

إن زيادة أو نقص المعروض من الدولارات فى سوق القروض يؤثر أيضاً على أسعار العملات المحلية فى كل بلد من البلدان. فلا يجب أن ننسى أن كل بلد يجب أن تحتفظ بحد أدنى من الدولارات فى بنوكها المركزية كضمان للقروض الأجنبية. فإذا ما نقص المعروض من الدولار فى السوق تضطر البنوك المركزية إلى تخفيض قيمة عملتها من أجل شراء الدولارات القليلة المعروضة للبيع. وهذا كله يؤثر فى النهاية على الاقتصاد الفعلى، حيث يضطر الخاسرون فى النهاية إلى بيع أدوات الإنتاج الفعلية، بل وبيع السيادة الوطنية أيضاً بأبخس الأسعار ليحصلوا على كميات قليلة من الدولارات يسددون بها بعضاً من ديونهم.

TAREK AHMED HASAN

هذا هو قمة القهر الثقافى. فكل شئ عادى جداً ولا يلقى أى اعتراض من السلطة الدينية أو الدنيوية، بل إنه يحمل غلافاً إنسانياً ناصع البياض. ولكن الواقع هو أن الجميع ملوثون وشركاء فى الجريمة. كما أنهم لا يحلمون على الإطلاق بالتحرر من سيد المال، ولكنهم ينتظرون عفوه ورضاه. والأكثر من ذلك هو أن التجربة الواقعية، والسقوط أمام فتنة المال، قد أقنعتهم بالفكرة المشبوهة التى أشاعتها السلطة عن طبيعتهم الشريرة التى تستحق كل ما تلاقيه من معاناة. وهم لا يتصورون أبداً أنهم يتعرضون إلى هجمة شرسة من قهر ثقافى نجح فى توظيف المال والعلم والدين والفلسفة لصالحه.

القهر الثقافى أو الظلم الشرعى أو التوثيق الأخلاقى لمبادئ لا أخلاقية قد دفع الجميع عمداً إلى التعثر أو التثبيت الطفولى أو السلوك الشرير أو التوازن الزائف، ثم اعتبر ذلك سبباً كافياً يستخدمه من أجل ممارسة المزيد من القهر. كل هذا يبدأ من أكثر الدول تَحَضُّراً. وهو أمر لا يختلف كثيراً عن سحق نفس هذه الدول للدول المتخلِّفة وتوثيق ذلك

TAREK AHMED HASAN

أخلاقياً بحجة تهذيب طبيعتها الشريرة ومساعدتها على الاندماج فى الحضارة.

TAREK AHMED HASSAN

(10)

البحث عن مخرج

لقد تعين على الإنسان أن يختار بين أن يكون مؤمناً ويقبل كل القهر الثقافى الموجود فى المذاهب الدينية، وبين أن يكون كافراً ويقبل كل القهر الثقافى الموجود فى المذاهب العلمانية. أو يكون معتدلاً ويقبل الاثنين معاً.

كان على الإنسان المعتدل البسيط باستخدام إمكاناته الضعيفة وثقافته المحدودة أن يتحمل ضغوط أوثان دينية وأوثان علمانية تصدر أوامرَ متناقضةً فى وقتٍ واحد، وإن كانوا جميعًا يتفقون على ضرورة استعباد الإنسان بطريقةٍ أو بأخرى. إن التعثر والانقسام والفشل الذى يحدث من جراء ذلك يكون مَرَدَّهُ دائماً إلى الطبيعة الشريرة للإنسان التى دائماً ما تسقط فى اختبار الطاعة.

ولكن الصراع الرئيسى للإنسان أو صراع الخير والشر ليس صراعاً بين طاعة ومعصية داخل ثقافة معينة، كما أنه ليس صراعاً بين طاعات ومعاصى

TAREK AHMED HASAN

بعدد الثقافات المختلفة، ولكنه فى الواقع صراع الحرية ضد العبودية، صراع استرداد الإنسان لحريته المسلوبة وإيمانه بمقدرته على اكتشاف قيمه الأخلاقية داخل طبيعته الخَيِّرَة ضد من يريدون الاستمرار فى استعباده بحجة طبيعته الشريرة.

ولكن هذا الرأى كان لابد له من سَنَدْ علمى يعطيه شرعيةً فى مواجهة قوى القهر والتسلط. وكأن مجهودات الفلاسفة والعلماء والمصلحين والأنبياء وثورات الشعوب وكل الأعمال الفنية والأساطير لا تكفى. وكأن أيضاً الفطرة والطبيعة الإنسانية الأصيلة لا تكفيان.

الصورة مقلوبة. فاستعباد البشر هو العادى والمألوف، وحقهم فى الحرية يحتاج إلى إثبات. وكلما ثارت الشعوب من أجل الحرية كلما تعرضت للمزيد من الاستعباد تحت عنوان: "هذه هى الحرية التى كنتم تبحثون عنها."

إن كل مجهودات العلماء الحقيقيين فى العصر الحديث هى محاولات للوصول إلى فهم أفضل للإنسان

TAREK AHMED HASSAN

يجعله يثق فى نفسه، ويسترد حريته، ويعتمد على الأخلاق الإنسانية النابعة من طبيعته الخَيِّرة.

ولكن هذه لم تكن مهمةً سهلة للعلماء. فقد كانوا يواجهون نقص المعلومات، بالإضافة إلى الحرب الخفية التى تشنها قوى القهر عليهم، وكذلك رفض العبيد أنفسهم لمن يقدم لهم يد المساعدة، خوفاً من السلطة الحقيقية أو السلطة الوهمية أو اكتفاءً بالرشوة التى تُقَدَّمْ لهم. فالسلطة لكى تقهر الجميع لا تمانع فى أن يقهر الأب أبناءه، ويقهر الرئيس مرؤسيه، ويقهر رجال الدين المؤمنين، ويقهر المعلمون التلاميذ، بحيث يصبح الجميع شركاءً فى الجريمة وأصحاب مصلحة فى إخفاء الجثة. إنها الجريمة الوحيدة التى يتعاون فيها القاتل والقتيل ضد رجل الشرطة.

أما قهر الرجل للمرأة فقد كان هو دائماً الرشوة السخية التى تَلَقَّاها الرجل فى كل زمان ومكان مقابل استسلامه للسلطة.

TAREK AHMED HASSAN

بهذا أصبح الجميع يتظاهرون بالعمل على حل اللغز، بينما هم فى الواقع يتعاونون من أجل إبقائه مُعَلَّقاً بدون حل. إن حل اللغز لا يصطدم فقط بأوثاننا، ولكنه يصطدم أيضاً بمصالحنا.

TAREK AHMED HASSAN

(11)

ترويض أفكار فرويد

إن أشهر وأهم محاولة حديثة لفهم الإنسان هى "نظرية التحليل النفسى" لـ"سيجموند فرويد" التى قدمها فى النصف الأول من القرن العشرين.

استوعب فرويد كل الثقافة الشعبية والدينية والعلمية والفلسفية التى بين يديه، وتوصل إلى نتيجة حاول أن يحصل لها على توثيق علمى على قدر المستطاع. افترض فرويد وجود جهاز نفسى يقود الإنسان ويتكون من قوتين أساسيتين: الأولى قوة غير عاقلة تمثل الجانب البيولوجى من الإنسان. والثانية قوة عاقلة تمثل الجانب النفسى من الإنسان ومهمتها السيطرة على القوة الأولى وقيادتها بطريقةٍ آمنة. وبين فرويد أن الضمير هو مركز القيم الأخلاقية المستمدة من الأسرة والمجتمع، ومهمته فرض الرقابة على أداء الجهاز النفسى.

TAREK AHMED HASSAN

وابتكر فرويد فكرة اللاوعى، وهى منطقة افتراضية في الجهاز النفسى تحتوي على الدوافع الممنوعة من الظهور. وأكد أن الوعى الإنسانى هو القشرة الخارجية لعالم ضخم من اللاوعى. وتوَّصَلَ أيضاً لفكرة الدفاعات النفسية. إن الكثير من الدوافع الخطرة يتم كبتها فى اللاشعور، وإن كل السلوك غير المفهوم من الإنسان ناتج من محاولات هذا المكبوت الخروج إلى النور، واضطرار الشخصية إلى استخدام أساليب دفاعية للتعامل معه. لهذا فإن سلوك الإنسان ليس عقلانياً تماماً، ولكن جزءاً كبيراً منه ينتج من استخدام بعض هذه الدفاعات لاشعورياً، كما أن الفشل فى استخدام هذه الدفاعات هو السبب فى كل الاضطرابات النفسية.

ولكن ما هى طبيعة ذلك المكبوت الذى يسبب كل هذه المتاعب؟ آمن فرويد أن هذا المكبوت ذا طبيعة جنسية أو عدوانية، وظل سنواتٍ طويلة يبنى صرحاً ضخماً من النتائج المبنية على هذا الرأى.

لقد وضع فرويد بلا شك كل الأسس اللازمة لفهم الإنسان، ومع ذلك فقد أدت أبحاثه إلى نتائج عكس

TAREK AHMED HASAN

ما كان يأمل. فرويد لم يجد الإنسان الخيِّر الذى يستحق أن يبحث عن حريته وينتزعها من براثن قوى القهر والتسلط. إن فرويد العالم قد تغلب على فرويد الفيلسوف. ومن أجل الأمانة العلمية وصف فرويد الإنسان كما هو لا كما يجب أن يكون. والإنسان كما هو كان عبارة عن كائن ضعيف استنزفته قوى القهر على مدار دهور طويلة.

لقد بدا وكأن أبحاث فرويد هى عبارة عن فشل علمى هائل فى مواجهة القهر والتسلط إن لم يكن دعماً لهما. فالجزء غير العاقل من الشخصية عبارة عن حيوان شرير يبحث عن أى إشباع. أما الجزء العاقل فإنه حائر يحاول جاهداً كبح جماح الجزء الأول. كما أن اكتشاف فرويد للاوعى أدى إلى فقدان الثقة بالعقل كمرجع فى الحكم على الأمور، كما أدى أيضاً إلى دعم حجة من يريدون استبدال عقولنا بعقل السلطة.

إن اعتبار فرويد الدافع الجنسى المكبوت هو محرك الأحداث بدا وكأنه دعوة للنفس للانغماس فى الملذات بدلاً من تهذيبها. ثم إن تعديل ذلك واعتبار أن كبت الدافع العدوانى هو الذى يحرك

TAREK AHMED HASSAN

الأحداث قد أعيد استخدامه ليكون مبرراً علمياً للحروب والاقتتال، رغم أن فرويد قد دعا للتسامى فوق هذه الدوافع عن طريق تنفيس الطاقة المكبوتة فى ممارسة الرياضة والفن والإبداع.

فلسفة فرويد رغم أنها كشفت كل المستور، إلا أنها فى النهاية لم تكن إلا توثيق علمى لأفكار موجودة على الساحة. فقد دعمّت فكرة الأصل الشرير للإنسان، ولم تجد له حلولاً إلا فى القبول بالأمر الواقع ومحاولة تخفيف الضغوط عليه.

وقد حققت قوى القهر أكبر استفادة من نظرية التحليل النفسى، إما عن طريق استغلالها فى وضع مبرر علمى للقهر الثقافى أو بطرد النظرية خارج نطاق العلم حتى لا يجرؤ العلم مرةً أخرى على اقتحام منطقة مُحَرَّمة. وبذلك تعود هذه الأمور إلى قبضة رجال الدين الزائفين أو النصابين والمشعوذين، ويتحول العلم إلى وسيلة لإنتاج التكنولوجيا بعيداً عن محاولة فهم حقائق الأمور، ويتحول العلماء إلى روبوتات ذكية مهمتها الوحيدة هى جلب الأموال إلى خزائن

TAREK AHMED HASAN

الأثرياء. إن فيروس القهر الثقافى قد اخترق نظرية التحليل النفسى وروضها كى تعمل فى صالحه.

TAREK AHMED HASSAN

(12)

ترويض أفكار دارون

أما النظرية الأخرى الشهيرة التى كان لها أكبر تأثير فى عملية فهم الإنسان فهى "نظرية التطور" لصاحبها "تشارلز دارون" التى قدمها فى منتصف القرن التاسع عشر، وهى تتلخص فيما يلى:

"الانتخاب الطبيعى هو الاختبار الحقيقى على أرض الواقع للصفات الوراثية التى يحملها الكائن الحى."

معنى ذلك هو أن الكائن الذى يحمل صفات وراثية قادرة على التطور والارتقاء والتكيُّف بصورة أفضل مع الظروف الطبيعية المتغيرة هو وحده الذى يكون لديه فرصة أفضل للبقاء والاستمرار والتكاثر ونقل صفاته الوراثية إلى أجيالٍ تالية.

لم يكن لدارون أى طموحات فلسفية أو دينية. كان الرجل يبحث فى العلم الذى يخُصّه وهو علم البيولوجيا. وقد توصل إلى نتيجة مبهرة تلغى الفوضى

TAREK AHMED HASSAN

من عالم الأحياء وتوّحده فى نظامٍ رائع ينظر للكائنات الموجودة حالياً باعتبارها نتاج رحلة تطورية طويلة تفاعلت فيها الكائنات مع الطبيعة.

إن الكائنات فى حالة صراع مستمر والبقاء للأفضل. فإذا عدنا بأنظارنا إلى الخلف نجد أن كل الكائنات بما فيها الإنسان هى عبارة عن شجرة حياة كبرى بدأت من كائن وحيد الخلية.

والنظرية ليس لها شأن بكيفية تواجد أول كائن حى وبداية انبثاق العالم الحيوى من العالم الفيزيائى. النظرية ترصد شئ موجود بالفعل ولا علاقة لها بعلة وجوده. إنها تقرأ النظام الموجود خلف الفوضى. واضح أن هذه الفكرة لا تتعارض مع فكرة وجود إله عظيم خلف كل هذا الإعجاز الموجود فى الكون، ولا تتعارض أيضاً مع أفكار هؤلاء الذين لا يرون أى فائدة تُذكَرْ من وراء مناقشة أمور خارج حدود هذا العالم.

والآن نصل إلى أقوى مثال يدل على قوة القهر الثقافى وقدرته على اختراق المذاهب العلمية بدرجة لا تقل عن اختراقه للمذاهب الدينية. لقد ناقشنا

TAREK AHMED HASSAN

بالتفصيل إلى أى مدى استطاع القهر ترويض أفكار فرويد وجعلها تعمل لصالحه. نفس الأمر حدث مع أفكار داروين. والحوار بدأ كالآتى: مادامت الطبيعة فى حالة صراع مستمر من أجل البقاء، ومادام البقاء للأفضل، ومادام الإنسان جزء من الطبيعة، ألا يعطى ذلك شرعية لصراع الإنسان ضد أخيه الإنسان؟ ألا يعنى ذلك أن إبادة الجماعات القوية المتحضّرة للجماعات الضعيفة المتخلّفة هو أمر حتمى يتفق مع التطور؟ ألا يبدو الأمر منطقياً ومتطابقاً تماماً مع مسار التاريخ؟ أليست الداروينية الاجتماعية هى نتيجة مباشرة للداروينية البيولوجية؟

ترى الداروينية الاجتماعية أن الأعراق البشرية المتحضرة سوف تقوم في الأغلب بالقضاء على الأعراق الهمجية فى شتى أنحاء العالم.

يقول هربرت سبنسر وهو أحد كبار منظرى الداروينية الاجتماعية: "إن الإحسان المنظم من الدولة هو فعل معارض للقانون الطبيعى الذي يقضى ببقاء الأصلح، بل إنه يؤدى إلى انحطاط النوع الإنسانى بالتدريج لكونه يعمل على تكاثر أقل الأفراد

TAREK AHMED HASAN

موهبةً على حساب أكثرهم موهبةً. إن تقدم الأقوياء وسقوط الضعفاء من الشيوخ والمرضى والمجانين والعاطلين عن العمل هو نتيجة ضرورية لقانون مستنير ونافع."

ويقول عالم الاجتماع الأمريكى وليام سمنر: "إن أولئك الطموحين الذين لا يرحمون هم من يقفزون إلى القمة، وهم يجب أن يفعلوا ذلك، أما أولئك المرضى والعاجزون والمبذرون فهم الخاسرون. إنهم لا يتكيفون مع واقع عالمهم، ويصبحون عرضة للاستبعاد الشرعى بالانتخاب الاجتماعى."

ويقول كاتب سياسى أمريكى معاصر: "إن المجتمع الدولى يسمح باستخدام كافة وسائل القهر والإكراه بما فيها الحرب والتدمير. والصراع من أجل القوة لا يختلف فى شئ عن الصراع من أجل البقاء. فالقوة تعنى البقاء، وتعنى القدرة على فرض إرادة دولةٍ ما على إرادة دولةٍ أخرى، والقدرة على إملاء الشروط للحصول على التنازلات المطلوبة. وإذا كانت الحرب هى الصورة النهائية للصراع، فإن الكفاح من أجل القوة يصبح كفاحاً من أجل الإعداد للحرب."

TAREK AHMED HASSAN

ها هو القهر يحقق انتصاراً كبيراً آخر على العلم. فبعد أن تحول فرويد إلى رمز للجنس والعدوانية، تحول داروين إلى رمز لاستعباد القوى للضعيف. وتم التعامل مع نظرية الانتخاب الطبيعى بنفس الطريقة التى تم اتّباعها مع نظرية التحليل النفسى، وذلك إما باستغلالها فى التبرير العلمى للقهر الثقافى أو بطردها خارج نطاق العلم باعتبارها تعالج أموراً غيبية من الصعب إثباتها بالأساليب العلمية المعتمدة. وهكذا نرى أن فيروس القهر الثقافى قد روض نظرية التطور أيضاً ووظفها فى العمل لصالحه.

TAREK AHMED HASAN

(13)

البحث عن مخرج مرة أخرى

وفى النصف الثانى من القرن العشرين كان القليل من العلماء المخلصين مازالوا يتذكرون هدفهم الكبير، وهو الوصول إلى فهم أفضل للإنسان ينزع الشرعية عن القهر والظلم والهيمنة.

فالحضارة الحديثة قد هاجمت الأوثان الدينية بكل قوة ولكنها لم تفعل شيئاً ضد فكرة صناعة الأوثان نفسها. وسر قوة الأوثان الدينية هو ارتباطها بمصدر قوي جداً لا غنى للإنسان عنه هو الأخلاق الإنسانية. والأخلاق الإنسانية عادةً ما ترتبط بفكرة الإيمان. وبدلاً من أن يتم التركيز على فكرة فك الارتباط بين الأوثان وبين الأخلاق الإنسانية، تم التركيز على فكرة فك الارتباط بين الأخلاق الإنسانية وبين الإيمان. إن مشرط الجراح قد ترك الجزء المصاب واستأصل الجزء السليم من الجسم.

TAREK AHMED HASSAN

وكانت النتيجة هى ظهور أوثان لا دينية تلبس ثوب العلم، وتتدخل فى كل فرع من فروع الحضارة، وتزرع القيم التى تدعو إلى التسلط والعدوانية، وتعمل على استعباد الشعوب بطرق أكثر خبثاً من كل الطرق القديمة.

إن المرجع المعتاد للأخلاق الإنسانية وهو الإيمان قد تم استبداله بالعقل البشرى. ولكن فرويد أثبت قابلية العقل البشرى للخداع. فتم استبداله مرةً أخرى بالطبيعة. ولكن دارون أثبت أن البقاء للأقوى.

ما الحل؟ هل يستمر القهر الثقافى فى استعبادنا بينما نحن مقيدون بفهمنا الخاطئ للإيمان، وفهمنا الخاطئ للعقل، وفهمنا الخاطئ للطبيعة؟

TAREK AHMED HASSAN

(14)

الظروف الاجتماعية

تقدم الفيلسوف إريك فروم خطوةً كبيرةً إلى الأمام وقدم التصويب الرئيسى لأفكار سيجموند فرويد حينما أعلن عن نظريته فى "الطبع".

الطبع هو النظام الذى يتحكم فى العواطف الإنسانية. فالعواطف الراسخة فى الطبع لها أسباب ثقافية اجتماعية لا بيولوجية فطرية. والإنسان مسلوب الإرادة ذو الطبع الفوضوى والتفكير اللاعقلانى والضمير التسلطى هو صنيعة الظروف الاجتماعية. ورغم ذلك فإن هذا الإنسان مازال لديه فرصة لكى ينضج ويسترد حريته ويتمتع بطبع إنتاجي وعقل موضوعى وضمير رحيم. ابحث عن ذاتك وسوف تجدها.

إن فكر إريك فروم الإنسانى يرى أن الإنسان يخلق عالمه بنفسه، وأن شخصيته الكلية فى صراع دائم بين اتجاهين: إتجاه رئيسى هو الخير، واتجاه ثانوى هو

TAREK AHMED HASSAN

الشر، وأن الطاقة النفسية إن لم تُفرَّغ فى سلوك إنتاجى فإنها سوف تُفرَّغ فى سلوك عدوانى، وأن ذلك يعتمد أصلاً على عوامل بيئية واجتماعية أكثر من اعتماده على عوامل غريزية فطرية. هذا الفكر أدّى إلى اكتشاف التمييز بين الطبع الإنتاجى بكل ما يحتويه من عواطف طيبة، والطبع العدوانى بكل ما يحتويه من عواطف مدمرة.

ولاحظ فروم أن العدوانية الفطرية لا تشكل إلا نسبة بسيطة من مجمل العدوانية. أما الشق الأعظم من العدوانية التى نعانى منها فهى عاطفة لا معقولة راسخة الجذور فى الطبع. إنها عبارة عن كره مجانى يجرى تبريره عقلياً، وهى تَنتُج من تفاعل الشخص مع المجتمع. هذه العدوانية غير العقلية تتناسب مع انسداد السبيل أمام مد جسور الحياة. فالطاقة التى تعجز عن الخروج فى نشاط إنتاجى تخرج فى النهاية فى نشاط عدوانى. ولكن العدوانية الغريزية لدى الإنسان دفاعية ولا تعادى الحياة، بل إنها خادمة لها.

إريك فروم يبحث عن الحق والخير والجمال من خلال نظرية علمية. إنه يحاول أن يعيد للإنسان الأمل

TAREK AHMED HASAN

الذى أضاعه فرويد، ويبين أن الغرائز الفطرية بريئة من مسئولية الشر. فالشر الأكبر اجتماعى فى حقيقته، وطبيعة الإنسان ليست شريرة، والإنسان يستحق فرصة أخرى يثبت بها ذاته بدون معجزات خارجية.

وأكد إريك فروم على ضرورة التمييز بين الضمير الإنتاجى والضمير العدوانى. فالأول يشجع السلوك ويدفعه إلى الأمام ويتسامح معه ويمنحه القوة والإرادة والتصميم على اجتياز العقبات. والثانى يحاصره ويتسلط عليه.

وأشار إريك فروم بوضوح إلى الثنائية القائمة بين العقل الموضوعى المستقل والعقل الفوضوى المبرر. فالأول يبحث عن النظام والعلم والحب والإنتاج، وهو الأصل فى الشخصية، ولذلك فإنه بريء من تهمة تبرير وتزييف الواقع. أما الثانى فهو الاتجاه الثانوى للشخصية الذى يجب أن يتقلص تدريجياً مع اتجاه الفرد والمجتمع إلى العمل والإنتاج، لا إلى الهدم والتسلط. بذلك يعود للعقل مصداقيته واحترامه وقدرته على فهم الأمور وسن القوانين ووضع القيم

TAREK AHMED HASSAN

والمبادىء والمعايير بطريقة موضوعية تتفق مع طبيعته، دون أن يضطر إلى تزييف الواقع، ثم الدفاع بكل قوة عن هذا التزييف. بهذا لا يستمد الإنسان صحته النفسية من التكيف مع الواقع، وإنما من قدرته على فهم هذا الواقع والعمل بإيجابية من أجل تغييره نحو الأفضل.

إن صيحة إريك فروم هى دعوة لمقاومة القهر الثقافى ورفض صريح لنظرية الطبيعة الشريرة للإنسان؛ فمشاكل الإنسان النفسية والاجتماعية ليست متأصلة فى طبيعته ولكنها قادمة من الخارج. وإن صراع الخير والشر ليس صراع الإنسان ضد الحيوان الذى بداخله، ولكنه صراع الجانب الطيب من شخصيته، ضد الجانب الذى أفسده المجتمع.

TAREK AHMED HASSAN

(15)

جينات الأنانية وجينات الإيثار

أما الخطوة الكبيرة التى فتحت الأبواب المغلقة أمام هؤلاء الذين مازالوا يبحثون عن الحقيقة، فقد جاءت مع الاكتشافات الحديثة فى علم البيولوجيا. لقد كان اكتشاف الجينات الوراثية هو الإنجاز الذى كشف النقاب عن الآلية التى يعمل بها الانتخاب الطبيعى. فالجينات عبارة عن أوامر وراثية موجزة مكتوبة بلغةٍ خاصة على شريط طويل ملصق على جدران كل خلية من خلايا جميع الكائنات الحية يسمى (دى إن إيه). هذه الأوامر التى فك العلماء شفرتها مسئولة عن الحياة بدءاً من الكائن وحيد الخلية حتى الكائنات المعقدة التى تحتوى أجسادها على مليارات الخلايا.

الجينات تقود الكائن الحى منذ بداية تكوينه حتى ميلاده ثم موته وتحلُّله وعودته إلى حضن الطبيعة. والانتخاب الطبيعى هو عملية بطيئة معقدة

TAREK AHMED HASSAN

تعاونت فيها الجينات مع الكائنات الحية. فالجين يصنع الكائن الحى، والكائن الحى يصنع الجين.

وبين لنا عالم البيولوجيا التطورية: ريتشارد دوكينز فى كتابه "الجين الأنانى" أن الجين يتمتع بالكثير من الأنانية التى تساعد الكائن على التمسك بالحياة. ولكن الكثير من الحيوانات قد طوَّرت من خلال الانتخاب الطبيعى صفات وراثية فيها بعض الإيثار، أى فيها تفضيل لمصلحة القطيع على المصلحة الفردية. وهذا يعنى أن الحيوانات التى تحمل جين الإيثار قد أثبتت أنها تمتلك مقدرةً على البقاء والتكاثر بصورة أكبر من الحيوانات التى لا تمتلك هذا الجين. وهو ما يقودنا إلى فكرة "الأساس البيولوجى للأخلاق". إن الحيوان يحمل جينات الإيثار بجانب جينات الأنانية. وما الأخلاق إلا خلاصة تفاعل جينات الإيثار مع جينات الأنانية.

TAREK AHMED HASSAN

(16)

التطور الهادف

إن التطور الذى بدأ بفكرة الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذى اتجه إلى فكرة التعاون من أجل البقاء. والعلماء قد لاحظوا أن الحيوانات قد طَوَّرَتْ خلال مسيرتها الطويلة صفات وراثية فطرية تمنع انتهاء العنف الموجه ضد حيوانات من نفس النوع بالاقتتال الذي يهدد بانقراض النوع. إن الحيوان مزود بأوامر جينية تحد من عدوانيته ضد أفراد نوعه مما يحميهم من أن يقضى بعضهم على بعض. الطبيعة وَجَّهَتْ الحيوان إلى أن يفعل أى شئ سوى أن يتغذى على أخيه الحيوان لأنهم من نوع بيولوجى واحد، ولكن الإنسان لا يمتلك مثل هذه الثروة، لذلك كانت حروب الإنسان ضد أخيه الإنسان أشد فتكاً من سلوك أى حيوان مفترس.

الحيوان إذن برئ من ذنب الإنسان. والداروينية البيولوجية بريئة من ذنب الداروينية الاجتماعية. إن اعتداء الإنسان على أخيه الإنسان لا يتفق مع التطور.

كان يجب على الشعوب التى تعتبر نفسها متحضرة أن تأخذ بأيدى الشعوب المتخلِّفة. وهى مادامت لا تفعل ذلك فإنها تسير ضد التطور وتدفع بالإنسان نحو الانقراض. فما هو السبب؟ هل الحيوان أفضل خُلُقاً من الإنسان؟ أم أن هناك خطأ فى شئ ما؟

إن التطور يسمح للنوع الأرقى بأن يتغذى على النوع الأدنى، ولكنه يرفض أن يتغذى المخلوق على مخلوق آخر من نفس النوع، فكل منهما لديه نفس الفرصة لكى يتطور. والإنسان يعادى التطور إذا أعاق أخاه الإنسان ثم قرر أن يتغذى عليه لأنه يراه معاقاً. أنت لست من نوع بيولوجى أفضل من أخيك. كما أنك أيضاً لست من نوع ثقافى أفضل ما دمت قد حرمته بالقوة من الحصول على نفس الفرصة التى حجزتها لنفسك. فالتطور الثقافى قد خُلِقَ لكى يخدم التطور البيولوجى. والتطور البيولوجى لم يعد صراعاً عشوائياً من أجل البقاء يفوز فيه الأقوى ولكنه فى الواقع صراعٌ هادف. صحيح أن الأهداف لم توضع مسبقاً، وأنها قد ظهرت أثناء الصراع، ولكن بمجرد أن يظهر الهدف فإنه يحول الصراع العشوائى إلى صراع

TAREK AHMED HASSAN

هادف. وتطور الإنسان يتجه نحو هدف محدد هو الأخلاق الإنسانية، وكل من يسعون لعكس ذلك يتجهون ضد التطور مهما كانت التبريرات.

TAREK AHMED HASSAN

(17)

الكائن الحى يساهم فى تطوير ذاته

أثناء نسخ الخلية للجينات مليارات المرات يتم نسخ عدد قليل من الجينات مختلفة قليلاً فى شفرتها عن الجين الأصلى بحيث يمكن اعتبارها جينات جديدة تحمل أوامر وراثية مختلفة. هذه الجينات الجديدة تصنع خلايا جديدة مختلفة عن الخلايا الأصلية. هنا تخضع العملية كلها للانتخاب الطبيعى أو التجربة الواقعية. فإذا ما استطاعت الجينات الجديدة توفير فرصة أفضل للكائن الحى فى البقاء والعيش والنمو والتكاثر فإنها تتحول بعد عدد محدود من الأجيال إلى جينات رئيسية تحل محل الجينات السابقة وتؤدى إلى تطور الكائن الحى. وإذا لم تنجح فى ذلك يمرض الكائن الحامل لتلك الجينات أو يموت وهو ما يحدث فى أغلب الأحيان.

والجينات الجديدة التى اجتازت الانتخاب الطبيعى بنجاح وحملت مسئولية التطور لابد وأن تكون قد استطاعت التعاون مع منظومة الجينات داخل الكائن

TAREK AHMED HASSAN

الحى، وتمكنت من قيادة هذا الكائن نحو تفاعل أفضل مع البيئة ومع الكائنات الحية الأخرى. كل ما يهمنا فى هذا الأمر هو أن الخلية نفسها هى التى صنعت الجين الذى حمل لواء التطور. ومهما قيل عن أن الأمر كان مجرد صدفة أو خطأ فى النسخ أو تجربة عشوائية أو أى شئ آخر، فالمهم هو أن الكائن الحى قد ساهم بطريقة ما فى عملية خلق ذاته وصناعة مستقبله. إنه هو من صنع الجينات الجديدة وقدمها للانتخاب الطبيعى كى يحدد مصيرها.

إذا قفزنا عدة خطوات إلى الأمام يمكننا أن نصل إلى حالة الحيوان الذى يحمل جينات الإيثار بجانب جينات الأنانية. ونستطيع أن نلاحظ أن التفاعل بين هذين النوعين من الجينات قد أنتج جينات جديدة تحمل عدوانية مهذبة تجاه حيوانات أخرى من نفس النوع. والحيوان أثناء نسخه للجينات استطاع أن يصنع جينات جديدة تحمل الحد الأدنى من القيم الأخلاقية. هذه الجينات نجحت بالفعل فى الانتخاب الطبيعى واستطاعت المحافظة على حياة الحيوان وتزويده بفرصة أفضل للعيش والتكاثر والتطور،

TAREK AHMED HASAN

بعكس تلك الحيوانات التى قضت على بعضها البعض وانقرضت لأنها لا تمتلك مثل هذا الجين.

إن الانتخاب الطبيعى أصبح يتجه نحو الأخلاق، والحيوان نفسه ساهم فى ذلك. فالحيوان المهذب هو الذى صنع جينات مهذبة، والجينات المهذبة هى التى صنعت حيواناً أكثر تهذيباً، وهكذا فى عملية بطيئة ومستمرة.

إن نظرة فاحصة إلى الإنسان تؤكد أنه قد نجح بالفعل فى إنتاج جينات أخلاقية. ولكن هذه الجينات لم تنجح تماماً فى عملية تهذيب عدوانيته غير المهذبة تجاه إخوانه من البشر بسبب تعرضه لفيروس القهر الثقافى. وبالتالى فإننا يمكننا أن نتصور أن الخطوة التالية على سلم التطور هى التخلص من القهر الثقافى. وإذا كان عدة آلاف من العلماء الذين أفلتوا من شباك القهر الثقافى قد صنعوا المعجزات، فعلى هؤلاء الذين يشغلهم مستقبل الحضارة أن يتخيلوا ماذا يمكن أن يحدث لو صار لدينا ملايين من العلماء يعيشون فى مجتمع خالى من القهر.

TAREK AHMED HASAN

إن الذين يبيدون إخوانهم كى يفسحوا الطريق لأنفسهم ثم يزعمون أن التطور يبارك خطواتهم لا يختلفون فى أى شئ عن الذين يقومون بنفس العمل ثم يزعمون أن الإله يبارك خطواتهم. إن الشرعية العلمية الزائفة لا تختلف كثيراً عن الشرعية الدينية الزائفة. إننا يمكن أن نخدع أنفسنا، ويمكن أن يخدع بعضنا بعضاً، ولكننا لا يمكن أن نخدع الطبيعة. إن صوت الطبيعة بداخلنا يرفض كل تلك الادِّعاءات. إذا كان الأسياد والعبيد يتصارعون على هامش التطور فإن الإنسان الحقيقى وحده هو من يصنع التطور.

TAREK AHMED HASAN

(18)

التطور لم يتوقف

يقول العالم الشهير كونراد لورنتس: "إن فقدان التكيف البيولوجى للإنسان قد حدث قبل الوصول إلى تكيف حضارى مضمون."

ولكن النظرة الأعمق للأمور تبين أن التكيف البيولوجى لم يتوقف. إننا نعيش داخل مرحلة من عمر الإنسان، والتطور مازال مستمراً. إن الإنسان الذى لا يملك جينات كافية تحد من عدوانيته ضد إخوانه فى الإنسانية سوف يحل تلك المشكلة ثقافياً فى يومٍ من الأيام. وسوف يؤدى ذلك إلى تثبيت هذا الحل جينياً بعد عدد من الأجيال يزيد أو ينقص. بل إننا يمكن أن نزعم أن الأساس البيولوجى للأخلاق الموجود لدى الإنسان لم يكن موجوداً بنفس الصورة طوال الوقت، وأنه قد بدأ ثقافياً ثم تم تثبيته جينياً بالتدريج فى وقت ما قبل ظهور الحضارات.

TAREK AHMED HASSAN

إن الأخلاق الإنسانية هى جزء أصيل من التطور. ولكنه تطور لم يصل إلى مرحلة من النضج تسمح بتهذيب العدوانية غير المهذبة. إن الطبيعة قوية جداً. والتطور بكل ما يشمله من صراع من أجل البقاء لا يمكن وصفه بأنه سلوك طيب أو شرير. ولكن هذا التطور نفسه هو الذى أدى إلى تثبيت الأخلاق الإنسانية فى الجزء البيولوجى من شخصية الإنسان. فالأخلاق الإنسانية هى ثمرة الانتخاب الطبيعى، أى أن الإنسان الذى يحمل أخلاقاً هو الأصلح والأقدر على البقاء والاستمرار.

الإنسان بصورته الحالية هو خلاصة رحلة تطورية طويلة لم تنته بعد. الإنسان الحالى يختلف عن الإنسان فى الماضى البعيد والإنسان فى المستقبل البعيد أيضاً. فالتطور بطئ فى حركته ويحتاج إلى زمنٍ طويل قياساً بزماننا المألوف. أثناء ذلك فإن الصفات الوراثية التى تنجح فى مساعدة الإنسان على البقاء والاستمرار والتكاثر يتم تثبيتها جينياً، أى أنها تصبح جزءاً من تكوين الإنسان البيولوجى وتنتقل إلى الأجيال التالية. ولا تفرقة فى ذلك بين أن تسمى

TAREK AHMED HASAN

هذه الصفات غرائز أم مشاعر أم أفكار أم قيم أخلاقية. إن ما يسجل داخل الجينات هو مجرد عناوين أو مذكرات مختصرة لتلك الأمور. فلا عجب إذن أن يولد الإنسان الحالى حاملاً معه جينات الأخلاق. هذا هو خلاصة تفاعل سابق عميق للإنسان مع البيئة والمجتمع.

TAREK AHMED HASSAN

(19)

الانتخاب الطبيعى والانتخاب الثقافى

الآن يمكننا أن ننظر إلى الجهاز النفسى للإنسان على أنه يتكون من جزء بيولوجى يخضع لقانون الانتخاب الطبيعى، وجزء ثقافى يخضع لقانون الانتخاب الثقافى. فإذا كان الانتخاب الطبيعى هو الاختبار الحقيقى على أرض الواقع للصفات الوراثية التى يحملها الإنسان، فإن الانتخاب الثقافى هو الاختبار الحقيقى على أرض الواقع للصفات الثقافية التى يحملها الإنسان. وإذا كانت وحدة نقل المعلومة الوراثية تسمى "الجين"، فقد تم إطلاق لفظ "الميم" على وحدة نقل المعلومة الثقافية. ولكن التطور البيولوجى بطيء جداً بالمقارنة للتطور الثقافى، لذلك فإن الأخلاق المدونة فى الجينات تعتبر قوية وثابتة ومطلقة ولا يمكن تغييرها فى عمر الإنسان، ومثال ذلك: الحب والعدل والحق والجمال والصدق والأمانة والشرف وغيرها. بعكس الأخلاق المدونة فى الميمات فيمكن تغييرها بما يخدم صالح البشر،

TAREK AHMED HASSAN

ومثال ذلك: القوانين والتشريعات والعقائد والمذاهب والمهارات والخبرات والمواصفات والعادات والتقاليد. النوع الأول هو القيم الأخلاقية الأولية التى نجحت فى الانتخاب الطبيعى. بينما النوع الثانى هو القيم الأخلاقية الثانوية المكتسبة التى نجحت فى الانتخاب الثقافى. إن نظام الميمات كله قد خرج من نظام الجينات وتحت رعايته، وهو يقابل العالم النفسى الذى خرج من العالم البيولوجى، فنظام الميمات لا قيمة له إذا لم يتوافق مع نظام الجينات. لهذا فإن الانتخاب الثقافى لا قيمة له إذا لم يتوافق مع الانتخاب الطبيعى. وإذا كان هناك جينات مارقة تعمل ضد منظومة الجينات تسمى فيروسات بيولوجية. فإن هناك أيضاً ميمات مارقة تعمل ضد منظومة الميمات تسمى فيروسات ثقافية. الفيروسات البيولوجية تستوطن الخلية الحية وتستخدمها فى إعادة إنتاج نسخ من نفسها، والفيروسات الثقافية تستوطن الضمير الإنسانى وتستخدمه فى إعادة إنتاج نسخ من نفسها. والخلية المصابة تنقل العدوى إلى خلايا أخرى، وكذلك الضمير المصاب ينقل العدوى

TAREK AHMED HASSAN

إلى ضمائر أخرى. وفى الحالتين يمكن أن يتحول الأمر إلى وباء يكون له اليد العليا فى تقرير مصائر البشر إذا لم تتوفر لديهم المناعة الكافية التى تمنحهم القدرة على المقاومة.

إن الأبحاث الخاصة بعلم الميمات قد انتشرت منذ قدم ريتشارد دوكينز فكرة "الميم" لأول مرة فى كتابه: الجين الأنانى عام 1975. ولكننى هنا فى هذا الكتاب، وأيضاً فى كتابى (الخير والشر)، أتناول الأمر من زاوية جديدة تربط بين فكرة الميمات وبين إعادة تصور الجهاز النفسى للإنسان باعتباره المسئول عن إنتاج وتخزين ونشر وتوزيع الميمات الثقافية. كما أننى باعتبارى باحث غير محترف لا أتقيد كثيراً بالضوابط العلمية، ولا أتردد فى القول إن العلم نفسه مصاب بالفيروس، مما يجعله يتناول الأمر بأكبر قدر من الحيادية. إننى أفترض أن العلم يجب أن يتحيز للأخلاق الإنسانية بدون أى ضوابط، وعندها سوف يرى بوضوح شديد المؤامرة التاريخية التى قام بها السادة الحكام ضد المحكومين، والتى أدت إلى نشر وباء القهر الثقافى فى كل مكان. بل إننى أزعم أن هذه

TAREK AHMED HASSAN

هى النقطة الأساسية التى يجب على العلماء الاعتماد عليها فى سبيل فهم الإنسان. وبدون ذلك سوف تظل نتائج أبحاثهم حبيسة داخل الأروقة العلمية، بينما الفيروس فى الخارج يفتك بالبشر دون أى مقاومة.

TAREK AHMED HASSAN

(20)

الجهاز النفسى الثقافى

إن التطور البدنى والذهنى الهائل لدى الإنسان قد وضع بين يديه قدرات هائلة يمكنه أن يستخدمها فى العمل والإنتاج أو يستخدمها فى التدمير والخراب. هذه القدرات الهائلة هى نفسها التى تجعل عملية تهذيب العدوانية لدى الإنسان أصعب كثيراً منها لدى الحيوان.

لذلك فإن الإنسان مزود بجهاز يقوم بتوفير الغطاء الأخلاقى اللازم لعملية السيطرة على العدوانية غير المسيطر عليها. وقد نجح هذا الجهاز جزئياً فى مساعدة الانتخاب الطبيعى على إنتاج جينات أخلاقية، ولكن المهمة لم تكتمل بعد.

هذا الجهاز هو الوعى الإنسانى أو الحرية أو الجهاز النفسى الثقافى. إنه الجهاز الذى ينتج الميمات ويعرضها للاختبار داخل المجتمع، فإذا ما نجحت هذه الميمات بطريقةٍ قاطعة فى الانتخاب الثقافى، فإنها فى هذه الحالة تُعَرَضْ أمام محكمة الانتخاب

TAREK AHMED HASAN

الطبيعى. هذه المحكمة تقرر ما إذا كانت هذه الميمات تستحق أن تتحول إلى جينات جديدة يتم قبولها ضمن منظومة الجينات التى تتحكم فى الإنسان أم لا.

بهذه الطريقة تحولت قيم مثل الحق والعدل والحرية والأمانة والشرف إلى قيم مطلقة مُثَبَّتَة جينياً، بينما بقيت الديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية والبوذية قيماً ثقافية تخضع للتبديل والتصويب والتعديل. الانتخاب الثقافى هو صورة مُصَغَّرَة من الانتخاب الطبيعى، ولكنه يخطئ ويصيب بينما الانتخاب الطبيعى لا يخطئ. إن المجموعة الأولى من القيم قد أثبتت بالتجربة العملية وبطريقة لا تدعو إلى الشك أنها تدعم الحياة والبقاء والاستمرارية والتطور، بينما أن المجموعة الثانية لم تنجح فى ذلك. إذن فالجهاز النفسى الثقافى يقوم بإنتاج وإدارة وتعديل وتطوير الميمات الثقافية التى تتحكم فى الإنسان، وفرز الصالح منها وترشيحه للانضمام إلى منظومة الجينات.

TAREK AHMED HASAN

إذا كان الكائن الحى بصفة عامة يشارك فى عملية تطوير ذاته من خلال الانتخاب الطبيعى، فإن الإنسان يفعل نفس الشئ ويضيف إليه عملية فرعية هامة هى الانتخاب الثقافى. فكيف يتم ذلك؟

الجهاز النفسى الثقافى يتكون من ثلاثة برامج تعمل معاً كوحدة واحدة وهم: برنامج الطبع الذى يتحكم فى العواطف وبرنامج العقل الذى يتحكم فى الأفكار وبرنامج الضمير الذى يُقَيِّم النتائج. ما يحدث بالضبط هو أن القيمة الثقافية تأتى من الخارج، أى من المجتمع، ثم تمر بمصفاة الطبع والعقل والضمير، وتأخذ تقييماً معيناً يسمح للإنسان بأن يستعين بها فى قراراته الحياتية أو لا يستعين. فإذا ما اعتمدها وقرر استعمالها، يُتَرْجَم كل ذلك إلى أفعال حقيقية تتجه إلى الخارج وتُحدِث تغييراً حقيقياً فى المجتمع والبيئة المحيطة. هنا يتعرض الأمر كله للانتخاب الثقافى، أى للنتيجة الفعلية للتجربة. وتعود نتيجة الاختبار الثقافى إلى الداخل مرةً أخرى من خلال ردود أفعال الآخرين لكى تساعد فى عملية

TAREK AHMED HASAN

إعادة التقييم وتجديد الثقة فى هذه القيمة الثقافية أو سحبها منها. وهكذا يتكرر الأمر بصفة مستمرة.

وكثيراً ما تأتى القيمة الثقافية مدعومة بتوصية خاصة من المجتمع. لقد خضعت للتجربة بواسطة آخرين وأثبتت جدواها وما عليك سوى أن تقبلها مؤقتاً على أن تختبرها فيما بعد. عموماً فإن الجهاز النفسى الثقافى أيضاً غير ثابت ويخضع لعملية النمو والتجارب والخبرات. وهو فى أحسن أوضاعه يجب أن يتمتع بطبع إنتاجي وعقل موضوعى وضمير متسامح خالى من التسيب أو التسلط.

ولكن الحرية الممنوحة للجهاز النفسى الثقافى وقابليته للتغيير واعتماده على الخارج من أجل ترويض العدوانية الموجودة فى الداخل يجعله عرضة للخداع والتضليل. شئ ما يعرقل الأمور ويؤدى إلى تعثر الجهاز النفسى الثقافى وعجزه عن تهذيب العدوانية غير المهذبة. هذا الشئ هو القهر الثقافى. إنه الفيروس الذى يأتى من الخارج ويمنع الجهاز النفسى الثقافى من أداء عمله ويحوله إلى خليط من طبع فوضوى وعقل غيبى وضمير تسلطى. هذا الفيروس هو الممثل الرسمى

TAREK AHMED HASSAN

لمصالح قلة من البشر أرادت أن تحصل على توثيق أخلاقى لامتيازات حصلت عليها بطرق لا أخلاقية.

فالقهر الثقافى يفرض على الجهاز النفسى الثقافى قيماً تتناقض مع القيم المطلقة المثبتة لديه جينياً، ويستخدم أشد الأساليب وضاعةً من أجل تحقيق هذا الغرض. فهو يستخدم القوة أو الخبث أو الإلحاح أو التأويل أو التسلط أو الرشوة. كما أنه كثيراً ما يهاجم الإنسان فى مرحلة الطفولة وقبل أن يمتلك قدرةً حقيقية على فرز الطيب من الخبيث.

إن الجهاز النفسى الثقافى يمكن خداعه وإسكان المبادئ التى تخدم القهر الثقافى داخله. ولكن الجينات لا يمكن خداعها. وبذلك تتعثر الشخصية وتنقسم ما بين قوة لا شعورية نابعة من جينات الأخلاق ترفض ببساطة كل النتائج المترتبة على القهر الثقافى، وقوة شعورية قد تلوثت بالفيروس وصارت تعمل لحسابه، فتنسخه داخل الضمير، ثم تعيد تصديره إلى ضمائر الآخرين.

TAREK AHMED HASAN

إن الإنسان السوى الذى يُفتَرَض أن يعمل لدعم خطة الطبيعة يحل محله الإنسان المتكيف مع الفيروس الساكن فى ضميره. هذا التكيف معناه طاعة الفيروس ثم نسخه فى عقول إناس آخرين، أى الخضوع للاستعباد وتعويض ذلك باستعباد الآخرين.

وظهور الوعى قد أعطى الإنسان حرية تهذيب العدوانية أو الاستسلام لها. هذا الأمر خاص تماماً بالإنسان. وإن الإنسان أثناء قيامه بتلك المهمة يستخدم إرادته الحرة ويتفق أو يختلف مع إخوانه من البشر حتى ينجح فى النهاية فى وضع قواعد وأسس وقوانين ومواصفات وحِكَمْ ووصايا تتفق مع القيم المطلقة المثبتة لديه جينياً. هذه القواعد هى التى تنجح فى اختبار الواقع وتؤدى إلى حسن حال الإنسان. ولكن هذه القواعد يجب أن تخضع للتعديل والتصويب طبقاً لمتطلبات الإنسان الحياتية.

أما إذا نجحت العدوانية فى التسلل من الباب الخلفى والاختلاط بتلك القواعد فإن الانتخاب الثقافى يتحول إلى قهر ثقافى يعمل عكس الحياة وعكس البقاء وعكس التطور مهما كانت مبرراته. والقهر

TAREK AHMED HASSAN

الثقافى الذى يدرك ضعف موقفه يحيط نفسه دائماً بنوع من الحماية المقدسة حتى لا يُكتَشَّفْ أمره. وهذا بالضبط هو حال الحضارة التى نعيش فيها مهما تَجَمَّلتْ.

TAREK AHMED HASSAN

(21)

فرويد وداروين مرةً أخرى

الإنسان يولد ومعه بذور الخير. هذه فى رأيى هى النتيجة النهائية لنظرية التطور بعد الاكتشافات الحديثة. وهى تتوافق مع النتيجة النهائية لنظرية التحليل النفسى فى صورتها المُعَدَّلَة. الإنسان يولد ولديه استعداد طبيعى مُسَجَّلْ داخل جيناته لأن يجد معنى للحب والعدل والحق والفضيلة والصواب والحرية بأى لغة من اللغات وفى أى ثقافة من الثقافات. والوعى الإنسانى بإرادته الحرة عليه أن يكمل ما بدأته الطبيعة. إن المهمة الرئيسية للوعى الإنسانى هى تهذيب العدوانية غير المهذبة وإتاحة الفرصة للقدرات الهائلة التى وهبت للإنسان كى تعمل.

وكل ما فعلناه فى هذا التحليل هو أننا نزعنا فيروس القهر الثقافى من كلتا النظريتين، والنتيجة هى أننا رأينا الحقيقة جليَّة واضحة بدون أى خداع. وأحسب أننا فى حاجة إلى أن ننزع الفيروس عن كل

TAREK AHMED HASSAN

ما يتصل بأمور حياتنا، وسوف نرى الحقيقة تختلف تماماً عن كل ماكنا نعتقد بأننا نراه.

ولكن أين الإيمان من كل ذلك؟ الإجابة هى أن الإيمان الحقيقى هو الإيمان الذى يسكن داخل قلب مليء بالحب، يتعاون مع عقل موضوعى قادر على رؤية النظام الموجود خلف الفوضى، ويسترشد بضمير متسامح خالٍ من التسلط أو التسيب. أما الإيمان الفوضوى اللاعقلانى، فهو الذى يفسح الطريق للقهر الثقافى كى يتسلل تحت جنح الظلام، ويسيطر على مقاليد الأمور.

TAREK AHMED HASSAN

(22)

القيم الأخلاقية المثبتة جينياً

إليك الآن قائمة ببعض القيم الأخلاقية المُثَّبَتَة جينياً التى لها مقابل فى كل اللغات وداخل كل الثقافات:

القيمة الأخلاقية	عكسها	القيمة الأخلاقية	عكسها
الخير	الشر	الفضيلة	الرذيلة
الحق	الباطل	الصواب	الخطأ
العيش	الموت	الحرية	القهر
الإخلاص	الخيانة	العدل	الظلم
السلام	الحرب	الاتفاق	الاختلاف
النظافة	القذارة	النظام	الفوضى
الجمال	القبح	المعرفة	الجهل
التعاون	التناحر	التماسك	الفرقة
الهداية	الضلال	الكرم	البخل
الطيبة	الخبث	القناعة	الطمع
الشجاعة	الجبن	الحسن	السوء
البناء	الهدم	الرحمة	القسوة
الصلاح	الفساد	الشرف	الإجرام

TAREK AHMED HASSAN

التعقل	الجنون	التعاون	الإعاقة
النبل	النذالة	الرقى	الدونية
التملك	المشاع	الوفاء	الغدر
الذكاء	الغباء	الفطنة	السذاجة
الود	الجفاء	الصدق	الكذب
الصداقة	العداء	التسامح	الحقد
الانضباط	الانحلال	الاستقامة	الانحراف
المسئولية	التسيب	الاهتمام	الإهمال
الأمن	الإرهاب	الأمانة	الخيانة
الصحة	المرض	الستر	العرى
الغنى	الفقر	العفة	الدناءة
الهدوء	الصخب	النشاط	الكسل
القوة	الضعف	المهارة	الخيبة
التقدم	التخلف	الإنجاز	التعطيل
الوضوح	الغموض	الأصالة	الوضاعة
المساواة	التمييز	المرونة	التعصب
الإبداع	التقليد	التطوير	التجمد
التعمير	التخريب	الإحياء	القتل
النجاح	الفشل	السعادة	التعاسة
التحمل	الانكسار	الصبر	الملل
التواضع	الغرور	الوقار	المجون
الإيثار	الأنانية	الصمود	السقوط
الاقتصاد	التبذير	التعاطف	الجفاء

TAREK AHMED HASSAN

التكيف	الاغتراب	التهذيب	الابتذال
التحضر	التخلف	الطموح	التخاذل
اللباقة	الوقاحة	التصحيح	العناد
المحبة	العداوة	التوازن	الاهتزاز
الانتماء	الاغتراب	القدرة	العجز
الحذر	الغفلة	الثقة	الشك
الاندماج	العزلة	الكرامة	الهوان
الحلم	التهور	النفع	الضرر
الخبرة	الغشم	الإيمان	الكفر
التعبير	التعتيم	الوداعة	الشراسة
البطولة	الخزى	التوجيه	التشتيت
النضج	الفجاجة	المشاركة	الانزواء
اليقظة	الخمول	الكمال	النقص
الواقعية	الوهم	السمعة	الفضيحة
الرضا	الشكوي	اللطف	السخافة
الاستقرار	التشتت	الجدارة	الاغتصاب
الإعداد	التعجل	الحكمة	الحمق
الفوز	الهزيمة	المكسب	الخسارة
القيمة	الرخص	المواجهة	النفاق
العظمة	الحقارة	البساطة	التكبر
الإمتنان	الجحود	الاحتشام	الفجور
الإتقان	الإهمال	العزة	الذل
العمل	البطالة	الحزم	التردد

TAREK AHMED HASSAN

(23)

الخير والشر

هذه القائمة قوية جداً. إنها الذهب وأى شئٍ آخر قد يكون فضة أو صفيح. أنت لا تشعر بقيمتها لأنها متوفرة لديك بالمجان ومُسَجَّلة داخل جيناتك. ولكن الواقع هو أن كلمة واحدة من الكلمات الموجودة بتلك القائمة يمكن أن يقوم عليها عمل فنى كامل أو قصة درامية أو أسطورة تاريخية أو مَثَلْ شعبى أو نص دينى أو رؤية فلسفية أو تقليد اجتماعى.

إن الإجماع على أن هذه المبادئ مُثَبَّتَة جينياً يمكن أن يحدث انقلاباً خطيراً فى نظرتنا إلى كل الأمور، أو فلنقل أنه يعيد الصورة المقلوبة إلى وضعها الطبيعى. فهو يؤكد على أصل الإنسان الخَيِّرْ ويحجب الشرعية عن قوى القهر التى تستمد وجودها من فكرة الطبيعة الشريرة للإنسان.

ولما كان مفهوم الخير والشر هو أمر خاص تماماً بالإنسان يتناول العلاقة بينه وبين إخوانه من البشر،

TAREK AHMED HASSAN

فإن الحالة الأولى التى يعمل فيها الانتخاب الثقافى لخدمة الانتخاب الطبيعى هى الخير الحقيقى. أما الحالة الثانية التى يحل فيها فيروس القهر الثقافى محل الانتخاب الثقافى ويعمل ضد الانتخاب الطبيعى فهى الشر الحقيقى. ولكن الفيروس لم ينسَ أن يقلب الحقائق فأشاع فكرة أن الخير هو الطاعة المطلقة لأوامره والشر هو معصية ذلك. وادَّعَى أن أوامره تتطابق مع إرادة الإله عندما لبس رداء الدين، ثم ادَّعَى أن أوامره تتطابق مع الانتخاب الطبيعى أو الصحة النفسية عندما لبس رداء العلم. وبهذا تم بناء صرح ضخم فوق أسس زائفة.

إن استعباد فيروس القهر الثقافى للضمير الإنسانى هو مصدر كل أنواع الاستعباد التى تنتشر بين البشر.

إن الطبيعة قد حسمت العلاقة بين الخير والشر، وأكدت لنا بوضوح أن الحق والصواب والعدل والمحبة والرحمة والشجاعة والإخلاص هي قيم خيرة. ولكن الإنسان أحياناً وبسبب عدوانيته غير المسيطر عليها يندفع نحو الباطل والخطأ والظلم والكراهية، ويجب عليه ثقافياً أن يجد وسائل لتصويب ذلك، كما يجب

TAREK AHMED HASSAN

ألا يكون القهر الثقافى بأى صورةٍ من الصور هو أحد تلك الوسائل. فالقهر الثقافى يؤدى فى النهاية إلى تضخيم العدوانية، ويجعل الفرد يُخَزِّنْ داخل ضميره عدوانية مجتمع بأكمله.

مطلوب من الإنسان ثقافياً باستخدام إرادته الحرة وبالتعاون مع إخوانه من البشر أن يتحكم فى عدوانيته بما يتوافق مع القيم الأخلاقية المثبتة لديه جينياً. وكأن على الإنسان أن يضع قوائم أخلاقية تفصيلية تتوافق مع القائمة السابقة وتعالج كل الأمور التى تمر به، على أن تخضع تلك القوائم للتغيير والتبديل والتعديل باستمرار حسب المتغيرات الزمانية والمكانية والظروف المتجددة. والإنسان يقوم بذلك بالفعل. والنتيجة هى القوانين والمواصفات والخبرات والعادات والتقاليد والحِكَمْ والأمثال والوصايا وغيرها.

TAREK AHMED HASAN

(24)

لغز قابل للحل

إن أجزاء الجهاز النفسى قد خُلِقَتْ لكى تتعاون ولا تتصارع. ولكن الصراع بدأ عندما لوث القهر الخارجى جزءاً من أجزاء الجهاز واستوطنه مثل الفيروس الذى يستوطن الخلية. هذا الجزء هو الضمير الإنسانى. لهذا تعثرت الشخصية وتعطل نموها. إن الفتنة قد حدثت والصراع مع الفيروس غير المرغوب فيه تحول إلى صراع داخلى بين مكونات الشخصية.

تبدأ المأساة عندما تأتى قوة غاشمة وتفرض على الإنسان قيمة أخلاقية مرتبطة بعناصر عدوانية وسحرية وتسلطية لأن لها مصلحة مخبأة بالداخل. إنها بذلك تخلط الصفيح بالفضة ثم تَدَّعى أنه ذهباً. ولكن هذا الوضع غير العادى لا بد له من حصاد غير عادى. إن تكبير الظلم والقسوة والغدر والفشل والخيانة والعدوانية ووصولهم إلى درجات غير معقولة هو ذلك الحصاد المر . وهنا تعود نفس القوة الغاشمة

TAREK AHMED HASSAN

وتعلل ذلك بدعواها الكاذبة عن الطبيعة الشريرة للبشر .

القهر الثقافى هو الشر الحقيقى. فى هذه الحالة يرث الفرد الواحد مبكراً كل القهر الذى يتعرض له المجتمع، فيتولد لديه استعداد كبير لارتكاب شرور أكبر كثيراً مما كان يمكن أن يحدث لو تُركَ لحاله. إن العدوانية التى تتولد لدى الشخص الجائع تجاه الآخر الشبعان هيِّنة وقابلة للسيطرة مقارنةً بالعدوانية التى تتولد لديه تجاه أشخاص يمتلكون أطناناً من الغذاء ويحصلون على الدعم الشرعى والقانونى الذى يؤكد أن هذا الوضع غير السليم يجب التسليم بأنه سليم تماماً.

إن الحضارة قد بدأت فى الوقت الخطأ. شئ ما دفع الإنسان لأن يبدأ حضارته قبل أن يكمل بناء شخصيته. كوارث طبيعية أو انفجار سكانى مع نضوب مصادر الغذاء ربما كانوا هم أسباب اندفاع الإنسان لفرض النظام على بيئته ومجتمعه قبل أن يفرغ من عملية فرض النظام على عالمه الداخلى.

TAREK AHMED HASSAN

التطور يوجه الإنسان كى يستعمل العدوانية التى بين يديه فى أغراض دفاعية فقط وإلا هلك. ولكن الإنسان قد بنى الحضارة التى يفتخر بها فوق جثث إخوانه من البشر، وبعد ذلك صار عليه أن يجد توثيقاً أخلاقياً لنظام توصل إليه بوسائل لا أخلاقية، وكان القهر الثقافى هو هذا التوثيق. وبعد ذلك تحول القهر الثقافى إلى عدوى فيروسية أو وباء يتدخل فى كل شئ. وتحولت العدوانية التقليدية إلى شيء بسيط إذا ما قورنت بالعدوانية الخبيثة الناشئة من القهر الثقافى. وأصبحت هذه العدوانية الخبيثة هى الشر الحقيقى الذى يعصف بشخصية الإنسان وبحضارته ويتهدد وجوده .

العدوانية التقليدية لها أساس بيولوجى واضح يظهر على شكل غريزة داخلية يتجه تأثيرها إلى الخارج. أما القهر الثقافى فإنه يأخذ مساراً عكسياً. إنه عدوانية خبيثة تتجمع فى الخارج ثم تأتى لتسكن فى الداخل. وإنها تسيطر أولاً على الضمير ثم يمتد تأثيرها ليشمل كل جوانب الشخصية. وهى من القوة بحيث يصبح الحل الوحيد المتاح للتعامل معها هو أن

TAREK AHMED HASAN

يقذف بها كل منا إلى الآخر فى رسالة مغلقة غير مسموح بفتحها حتى لا نرى الشيطان المخبأ بداخلها. ولكن الرسالة فى النهاية تنفجر فينا .

نحن فى الأساس لدينا أساس فطرى بيولوجى جينى أخلاقى، لكن لدينا بجانب ذلك عدوانية لا نعرف كيف نسيطر عليها بدون مساعدة من المجتمع. وعندما يقدم لنا المجتمع هذه المساعدة لكى تستقر فى ضمائرنا، يكون مُخبأ بداخلها بعناية شديدة عدوانية أكبر، وذلك لأن المجتمع نفسه لم يعرف بعد كيف يسيطر على عدوانيته. وحيث أن السلطة التى تسيطر على المجتمع تعرف جيداً خطيئتها ، فإنها تستعمل كل الطرق لكى تجعل عملية كشف خطيئتها هى نفسها الخطيئة الكبرى.

الموضوع باختصار هو أن المجتمع يفرض علينا شر كبير بحجة السيطرة على شر صغير. ولكن هذا الشر الكبير يهاجم فوراً طبيعتنا الخَيِّرَة ويفسدها .

إن فهم الأمور بهذه الطريقة يتقاطع مع الفكر السائد فى نقطة أساسية يمكن أن نعبر عنها كما

TAREK AHMED HASSAN

يلى: "إن الضمير الإنسانى المتفاعل مع المجتمع هو أول من يسقط أمام غزو القهر الثقافى، بينما الجانب الفطرى من الشخصية هو ما يظل يقاوم ".

لقد تمكن العلم من حل مشكلة نقص الغذاء والموارد الطبيعية على الأرض. إنه يكتشف كل يوم موارد جديدة ويبتكر وسائل لاستغلالها بحيث إذا ما وزِّعَتْ هذه الموارد بطريقة عادلة لم يتبقَّ فقير واحد على سطح الأرض. كما أن العلم قد وضع وسائل جديدة للتحكم فى الزيادة السكانية الهائلة بحيث يمكن نظرياً أن تكون زيادة السكان مرتبطةً بإمكانية توفير حياة كريمة لكل وافدٍ جديد .

إن العلم يقوم بحل كل الألغاز واحداً بعد الآخر، واليوم أصبح العلم قادراً على حل لغز الأخلاق بشرط أن يقوم بتطهير نفسه من آثار الفيروس. العلم قد وضع بين أيدينا معلومات هائلة عن تكوين الإنسان البيولوجى والنفسى. هذه المعلومات إذا ما وضعت بجانب بعضها بعضاً بدت لنا الصورة واضحةً جَلِيَّة، وهى أن التطور لم يتوقف، وأنه يتجه بالإنسان مباشرة نحو الأخلاق الإنسانية، وأن فيروس القهر الثقافى هو

TAREK AHMED HASSAN

الإعاقة الوحيدة التى تقف فى طريقه. نحن لا ينقصنا المعلومات أو الذكاء اللازمان لحل اللغز. كل ما ينقصنا هو تَوَفُّرْ النية الصادقة والإرادة الفعلية. إن فيروس القهر الثقافى قد زَيَّفَ الحقائق وقلب الصورة تماماً وجعلنا نتعاون بمنتهى الحماس من أجل إبقاء اللغز مُعَلَّقاً بدون حل، ثم نتباكى بعد ذلك على الحالة البائسة التى وصلنا إليها.

TAREK AHMED HASSAN

(25)

الطريق إلى هرمجدون

إن قوى القهر مازالت لا تقبل بفكرة الأصل الطيب للإنسان. كيف يمكن إقناعها بأن الأشرار الموجودين على سطح الكرة الأرضية هم من صنع يديها؟ وأن الأطفال الذين لم يولدوا بعد لاذنب لهم سوى أن مصيرهم قد تحدد مقدماً بدون أى رحمة.

إن النظام الذى تفتخر قوى القهر بأنها فرضته على العالم ليس نظاماً ولكنها فوضى زرعتها داخل نظام صنعه آخرون. الإنسانيون هم من صنع الحضارة ثم جاءت قوى القهر ونسبت العمل لنفسها لكى تجنى الثمار. الإنسانيون يستطيعون ترويض الإنسان الفوضوى وتحويله إلى عنصر فعال فى الحضارة. وقوى القهر هى من تصنع منه وحشاً يبرر توحشها وقسوتها غير المبررة. إن الصورة مقلوبة تماماً. وقد أشرت إلى هذه الفكرة فى كتابى الأول "التوازن الزائف" حيث قلت: "إن الشيطان قد ارتدى ثوب الملاك واندسَّ بين

TAREK AHMED HASAN

الصفوف يدعو الجميع إلى التقدم نحو الهلاك المحقق."

إن معظم هؤلاء الذين تحولوا اليوم إلى وحوش يقتل بعضهم بعضاً فى الدول الفاشلة كانوا أفراداً مسالمين يوم دخول الجيوش الغازية إلى بلادهم. وإن العقل الرهيب الذى كان وراء تحويلهم بصورة ممنهجة إلى وحوش هو فى الواقع مقتنع تماماً بفكرة الأصل الشرير للإنسان، ولكنه مع ذلك يستخدم التبرير العقلى لكى يستثنى نفسه من هذه الفكرة. إن كل النظريات الشائعة عن الجنس السامى أو الشعب المختار أو الجماعة المؤمنة أو السلالة النقيَّة قد وُضِعَت خصيصاً لكى تستثنى أكثر المخلوقات قسوةً نفسها من فكرة الأصل الشرير للإنسان.

هل تصدق أن هناك علماء مشبوهون يجرون أبحاثاً تحاول أن تثبت أن سادة العالم هم أحفاد مخلوقات فضائية زارت الأرض فى يوم ما فى سالف الزمان ثم رحلت؟ بهذا يصبحوا هم فقط من أصل بيولوجى مختلف ويحق لهم ذبح البشر كما نذبح نحن الدجاج لأن هذا العمل فى هذه الحالة تنتفى عنه صفة الخير

TAREK AHMED HASSAN

أو الشر. إن هؤلاء المخبولون يعملون بمنتهى الجدية، ويعيدون تأويل الأساطير الدينية بما يخدم دعواهم. بل إن فريقًا منهم مازال يحاول أن يبحث تحت الهرم الأكبر عن بقايا المركبة الفضائية المزعومة التى جاءت بهم إلى الأرض.

إذا كنت تظن أن الموضوع لا يعنيك، فثق أنه يعنى بشدة هؤلاء الذين يتحكمون فيك ويحددون مصيرك. إن الشرعية التى يستخدمونها من أجل سحق إرادتك هى نفسها الشرعية التى يستخدمونها أمام أنفسهم لكى يُصَدِّقوا أنهم على حق. ولكنهم قطعاً على باطل.

القهر الثقافى قد قلَّدَ الانتخاب الطبيعى ظاهرياً فى كل شئ. فقوة القهر قد نصبت من نفسها ممثلاً للإله على ظهر الأرض وفرضت علينا الأوثان بديلاً عن القيم الأخلاقية المطلقة. ولكن الحقيقة هى أن قوة القهر لا يمكن أن تكون مندوباً عن الإله، والأوثان لا يمكن أن تكون فى قوة وعظمة وأصالة وطهر القيم الأخلاقية.

TAREK AHMED HASSAN

الانتخاب الثقافى قد خُلِقَ لكى يؤدى دوراً لا يقوم به الانتخاب الطبيعى، وهو التطور الراشد السريع المستنير. لذلك فإنه مزود بالوسائل التى تمنحه حرية التعديل والتجديد والحذف والإضافة، وهى الأمور التى يحاربها القهر الثقافى بكل قوة. أيضاً فإن الانتخاب الثقافى يهدف إلى صالح الإنسان وتطوره، وهو الأمر الذى يتوافق مع صالح الحياة والطبيعة وتوجهها إلى الأمام، بينما القهر الثقافى يهدف إلى صالح القوى الزائفة التى سرقت هذه الحقوق.

إن الانتخاب الثقافى قد تحول إلى قهر ثقافى يتجه عكس التطور، ويقود الإنسان إلى الانقراض، والحياة إلى الموت، والنظام إلى الفوضى. والدليل على ذلك هو النفوذ المتنامى لوثن هرمجدون الذى لا يعبر إلا عن يأس الإنسان المتعثر واتجاهه إلى الانتحار.

ولمن لم يسمع عن هرمجدون أقول أنها نبوءة تُبَشِّر بحرب عالمية كبرى أكثر بشاعةً من أى حرب سابقة سوف تبدأ فى مكان ما فى الشرق الأوسط وتؤدى فى النهاية إلى إبادة معظم سكان الأرض. عندئذ لن يتبقى على قيد الحياة إلا القلة الخَيِّرَة

TAREK AHMED HASAN

وعلى رأسهم بالتأكيد هؤلاء المؤمنون بتلك النبؤة الذين من واجبهم العمل على دفع الأمور فى هذا الاتجاه.

لقد تسللت الفكرة داخل ثقافات وأديان مختلفة بصورة تجعل المتعثرين يستبشرون خيراً كلما شاهدوا الأمور تزداد سوءاً. بل صار من واجبهم المشاركة فى دفع الأمور نحو الأسوأ حتى صاروا هم أنفسهم ورقةً رابحةً فى يد من يجنى الثمار من جراء كل ذلك. إن القهر الثقافى قد زرع فى ضمائر الكثيرين فكرة أن الاتجاه نحو الكارثة هو قمة الإيمان وقمة العلم أيضاً.

هل الحضارة التى بدأت فى الوقت الخطأ لابد وأن تنهار؟ هل السقوط هو الطريق الوحيد من أجل تصحيح الأوضاع؟ هل نحن نعيش فى أسوأ لحظة من التاريخ؟ هل القهر الثقافى يتجه بنا إلى هرمجدون؟

إن حجم الاستعباد الذى يتعرض له الإنسان بواسطة القهر يبرر حجم الدمار الذى يقوم به العبيد أنفسهم وحجم السقوط الذى وصلوا إليه. فالقهر قد

TAREK AHMED HASAN

أذَلَّ الإنسان منذ الطفولة وتَدَخَّلَ فى كل شىء. وإن هذا يحدث فى كل زمان وكل مكان منذ بداية الحضارة التى نعرفها حتى اليوم.

إن شخصية الإنسان المقهور يتم استغلالها كحجة لتبرير المزيد من القهر. فهو إنسان لا يمكن الثقة فى مشاعره أو فى رجاحة عقله وأصالة ضميره. ولكن الإنسان الخَيِّرْ العاقل المتحرر من القهر هو الإنسان الحقيقى. فكل منا يستطيع أن يبحث عن ذاته الحقيقية رغم كل ذلك الحصار المفروض عليها، وسوف يجدها.

TAREK AHMED HASSAN

(26)

جذور القهر الثقافى

مهما كان الأساس البيولوجى للأخلاق قوياً، فإن القهر الثقافى كثيراً ما ينجح فى تضليل الإنسان بحيث يجعله فى النهاية يصر على أن الباطل هو الحق، وأن الظلم هو قمة العدل. شئ واحد فقط لم ينجح القهر الثقافى فى إفساده فى كل العصور وفى مختلف الثقافات. هذا الشئ هو الأمومة. فالأمهات اللاتى لم يفسدن، طبقاً لداروين، هن فقط اللاتى نجحن فى الانتخاب الطبيعى، أى نجحن فى العيش والبقاء، وأنجبن ذريةً، وحافظن عليها، ونقلن صفاتهن الوراثية إلى الأجيال التالية.

الأمومة كما نراها اليوم وأمس وغداً هى قمة الأخلاق. إنها الحب والحنان والعمل والرعاية والعدل والمساواة والرحمة وكل ما يخطر ببالك من الصفات الجميلة. بل إن الأمومة هى ينبوع دائم من الأخلاق. وإذا كانت الأخلاق كما رأينا هى خلاصة تفاعل جينات الأنانية مع جينات الإيثار، فمن الواضح أنه فى

TAREK AHMED HASAN

شهور الحمل يتم تفعيل نشاط جينات الإيثار طبيعياً عند الأم إلى أقصى درجة، وفى نفس الوقت يتم تخفيض نشاط جينات الأنانية إلى أقل درجة. وهذا يعنى أن نفس الجينات موجودة لدى النساء من غير الأمهات وموجودة أيضاً لدى الرجال دون أن يتم تفعيلها بنفس القوة التى تظهر فى العلاقة بين الأم وطفلها.

إن الانتخاب الطبيعى قد قال كلمته وأحسن التعامل مع الجزء البيولوجى من الجهاز النفسى الافتراضى وجاء لنا بإنسان يحمل الحد الأدنى من القيم الأخلاقية مسجلةً داخل جيناته. والانتخاب الثقافى أيضاً قد لعب دوره بكفاءة قبل أن تبدأ حالات القهر الثقافى فى الانتشار. والدليل على ذلك هو الخبث الملازم للقهر الثقافى. إن القهر الثقافى على أى مستوى لا يستطيع أن يدعو علانيةً إلى الظلم، ولكنه يناور ويَدَّعى أن هذا الظلم هو قمة العدل. فالعدل قد تم تثبيته كقيمة مطلقة جينياً وثقافياً قبل ظهور القهر الثقافى بزمنٍ طويل.

ألا يعنى ذلك أن الحضارة على المستوى الأخلاقى قد قطعت شوطاً طويلاً من التطور قبل أن تتعرض

TAREK AHMED HASSAN

لحالات من القهر الثقافى الفعلى على نطاقٍ واسع؟ وأن القهر الثقافى يعتبر أمراً حديثاً نسبياً بالقياس إلى عمر الإنسان؟ إذا كان هذا صحيحاً، فما هى إذن الظروف البيئية والاجتماعية التى صاحبت ذلك؟

لحسن الحظ فإن الدراسات التاريخية تعطينا فكرة تقريبية عن هذه الظروف. عندما ظهرت الكتابة، وأخذ الشعراء يقدمون أعمالهم الفنية التى تَحَوَّلَ الجيد منها إلى أساطير خالدة، كانت لا تزال فى ذاكرتهم الجماعية صور عن مجتمعات ما قبل الحضارة المُدَوَّنَة. تخبرنا الأساطير أن المرأة كان لها وضع مميَّز فى ذلك الزمان حتى كَثُرَ الحديث عن الإله الأم. ولكن الظاهر أنه فى تلك المجتمعات كان الرجلان المتخاصمان يحتكمان إلى الأم وهما متأكدان مقدماً أنها تحب كلاً منهما بطريقةٍ متساوية، وبالتالى فإن حكمها سوف يكون عادلاً. إنها كانت تكتسب شرعيتها كقاضٍ من الأمومة. فالأمومة هى الأمر الذى لا يختلف اثنين على نقائه لأنه صادر من الانتخاب الطبيعى بنسبة مائة فى المائة. كانت الأمومة هى أقدم الدساتير وأنقاها،

TAREK AHMED HASSAN

فقد كانت خاليةً تماماً من شبهة أى قهر ثقافى. وبالتأكيد كان هذا هو الزمن الذى تم فيه تفعيل القيم المطلقة جينياً وثقافياً بسرعة غير متوفرة فى زماننا هذا.

الآن نستطيع أن نُكَوّنْ فكرة عن وضع الإنسان فى عصر ما قبل عصر الحضارات، أى قبل حوالى سبعة آلاف عام من الآن. وهى فكرة تختلف عن كل الأفكار المألوفة. لأن كل الأفكار المألوفة قد دُوِّنت بعد اختراع الكتابة. وهو الأمر الذى حدث فى الفترة الفاصلة بين العصرين. إن الأفكار المألوفة قد قدمها لنا عقل سقط فى براثن التعثر فاختلطت لديه الحقيقة بالخيال.

إننا نزعم بأن الإنسان كان عاقلاً لفترةٍ طويلة فى ذلك الزمان الذى كان يتم فيه تثبيت المبادئ الأخلاقية جينياً وثقافياً. لم تكن هناك حضارة بالمعنى المألوف. ولم تكن هناك كتابة ولا زراعة ولا صناعة. كان هناك مجتمع رعوى. ولكن أيضاً لم يكن هناك نظام اجتماعى مُعَقَّدْ. ولم يكن هناك ملوك ولا عبيد. والأهم من ذلك أنه لم يكن

TAREK AHMED HASSAN

هناك قهر ثقافى. فالقهر الثقافى قد جاء لكى يعطى شرعية لعملية سيطرة الملوك على العبيد. فبينما كان الملوك مشغولون بعملية خلق نظام يحكم الفوضى، كان القهر الثقافى هو الفوضى نفسها متغلغلة داخل النظام.

العلاقات بين البشر قبل ذلك كانت علاقات بين أحرار وأحرار يحتاجون فقط إلى قاضٍ يحسن تسوية الخلافات التى تنشأ فيما بينهم ويساعدهم على السيطرة على عدوانيتهم غير المُسَيّطَرْ عليها. وقد وجدوا الصفات المطلوبة للقاضى العادل فى الأم، فهى وحدها تملك ينبوعاً لا يجف من المبادئ الأخلاقية. لم تكن الثقافة فى ذلك الزمان قد أخذت شكلاً واضح المعالم. ولم يكن الضمير الإنسانى قد نضج بما يكفى. ولم يكن الناس فى حاجة إلى فلسفة أو دين أو علم. كانت القيم الأخلاقية يتم تثبيتها ببساطة فى الجهاز النفسى للإنسان دون الحاجة لفهم الآلية التى تتحكم فى ذلك.

والإنسان المستعبد فى العصور التالية هو من سَرَحَ بخياله إلى الوراء، ونظر إلى إنسان ما قبل القهر الثقافى

TAREK AHMED HASAN

باعتباره إلهاً، واعتبر بداية تقسيم البشر إلى أسياد وعبيد هى بداية خلق الإنسان بصورته المألوفة. علماً بأن إنسان ما قبل القهر الثقافى لم يؤله نفسه، والصور الموجودة على الحفريات التى تركها لنا تعبر عن احترامه لقياداته أكثر مما تعبر عن تقديسه لهم. إن كل شئ يصبح مفهوماً بصورة مفاجأة إذا حذفنا كلمة: آلهة من أى مصدر يشير إلى تلك الفترة، ووضعنا بدلاً منها كلمة: أحرار.

إذن فالقيم الأخلاقية كان يتم اختبارها ثقافياً فى ذلك الزمان السحيق، ثم يتم تثبيتها جينياً بعد عدد معين من الأجيال. هذه العملية مازالت مستمرة رغم كل الإعاقة التى تواجهها فى زمن القهر الثقافى. إنها عملية لا تنتهى طالما يوجد إنسان. فبعض القيم مثل الخبرة والتَحَضُّرْ والتَقَدُّمْ والرُقِىّ والطموح والإنجاز تعود إلى زمن حديث نسبياً. بل إن قيمة التملك المثيرة للجدل يمكن أن تنضم إلى هذه القائمة الحديثة.

الجين الجديد يجب أن يثبت نجاحه فى دعم الحياة والوجود والتطور لكى يُقبَلَ طلبُ انضمامه إلى

منظومة الجينات التى نجحت فى تلك المهمة من قبل بصورة لا تدعو إلى الشك. لذلك لم يتحول القهر الثقافى فى يوم من الأيام إلى قيمة مطلقة رغم كل المجهودات التى قام بها السادة والملوك والحكام على مدار سبعة آلاف عام. وهذا هو ما يفسر كل التناحر والكراهية المتفشية بين أتباع المذاهب المختلفة رغم ادعاء كل منها بامتلاك الحقيقة المطلقة.

جينات القيم الأخلاقية التى تم تثبيتها قبل ظهور القهر الثقافى بزمنٍ طويل كانت ترفض دائماً طلب انضمامه إلى جمعيتها. وطوال تلك الفترة كان القهر الثقافى يتسلل دائماً فى الظلام مثل أى فيروس حقير، ويلتصق بالمعتقدات التى تحظى بكل درجات الاحترام. وطالما أنه عاجز عن الانضمام إليها، فإنه كان يعمل على هدمها. ولكن الطبيعة الإنسانية قوية، وهى فى حالة اشتباك دائم مع الفيروس. وإن استمرار الحياة يعنى أن الخير مازال أقوى من الشر، وأن الانتخاب الثقافى مازال أقوى من القهر الثقافى.

TAREK AHMED HASAN

الكثير من العلماء يعتقدون بوجود حضارة عاقلة للإنسان قبل الحضارة التى نعرفها. ولكنهم طبقاً لمفهومهم عن الحضارة كانوا يبحثون عن شئٍ لا وجود له. لقد كانوا يبحثون عن طائرات ودبابات وبقايا ناطحات سحاب. ولما لم يجدوا ما يبحثون عنه، فإنهم قد استنتجوا من ذلك قيام حرب نووية مَحَتْ تلك الحضارة المتقدمة. نعم كانت هناك حضارة متقدمة، ولكنها كانت متقدمة أخلاقياً وخالية من القهر الثقافى.

TAREK AHMED HASAN

(27)

الأساطير السومرية والبابلية

معظم الأساطير القديمة تعود إلى مرحلة الانتقال من السيادة الأمومية إلى السيادة الأبوية. كما أنها فى نفس الوقت تصور الانتقال من النظام الرعوى إلى النظام الزراعى الذى ارتبط بالملكية الفردية وتشييد المدن واقتناء العبيد. إنه النظام الذى اشتمل على حروب لا تنتهى بين جماعات متفرقة تهدف إلى استرقاق من يبقى حياً فى الجماعة المهزومة ليشارك فى تشكيل طبقة العبيد لدى الجماعة المنتصرة. لابد أن شيئاً عظيماً قد حدث فجعل الإنسان يتوحش بهذه الطريقة. ربما كارثة بيئية أدت إلى نضوب مصادر الغذاء ودفعت بالإنسان لأن يخترع الزراعة التى كانت سبباً فى كل الأحداث الهامة التى أعقبتها. وربما كانت الزيادة السكانية هى السبب فى ذلك. وبدلاً من أن يتعب الرجال الأحرار فى زراعة الأرض، قاموا بسرقة رجال أحرار آخرين من القبائل المجاورة،

TAREK AHMED HASSAN

ثم حولوهم إلى عبيد لكى يقوموا بتلك المهمة نيابةً عنهم.

لقد كانت الخطيئة الحقيقية التى مازلنا ندفع ثمنها حتى الآن هى سرقة الإنسان نفسه لا سرقة بعض متاعه. ومنذ ذلك الوقت صارت القضية الصعبة التى تشغل بال الإنسان هى كيفية الحصول على توثيق أخلاقى لهذا العمل غير الأخلاقى. صار على الإنسان أن يُبَدِّلْ بين معانى الخير والشر بحيث يصبح الشر الأكبر هو معصية من سرق إرادته. وأصبح شغل الإنسان الشاغل هو أن يضع دستوراً يفصل بطريقةٍ عادلةٍ فى سلطاتٍ حصل عليها بطريقةٍ غير عادلة.

إن قصص الخلق السومرية والبابلية لا تشير إلى عملية خلق الإنسان بقدر ما تشير إلى عملية خلق الإنسان المستعبد. هنا ظهرت أول حالة قهر ثقافى تحاول أن تعطى شرعية للنظام الجديد. وقد صاحب ذلك حدوث تغيرات فى الجهاز النفسى للإنسان أدت إلى تعثر بناء شخصيته وتَوَحُشُهُ وإطلاق غرائزه العدوانية ومشاعره الفوضوية وتفكيره اللاعقلانى، كما أدت إلى عجز ضميره الناشئ عن استيعاب تلك

الصدمة. كل هذا جعل الإنسان ينظر إلى أسلافه الذين لم يذوقوا طعم الاستعباد كآلهة خلقوا الإنسان الجديد لكى يخدمهم.

قصة الخلق السومريّة تربط بوضوح بين ظهور نظام الرقْ وبين ظهور الإنسان نفسه. فنظام الرقْ قد أتى بالإنسان المستعبد وحَوَّلَ الإنسان الحر إلى إله. والأسطورة تشير صراحةً إلى أن السبب فى خلق الإنسان هو خدمة الآلهة، حيث يُقَدِّم لها الطعام والشراب، ويزرع أرضها، ويرعى قطعانها. ففى البداية كان الآلهة يقومون بكل الأعمال، ولكنهم تعبوا من ذلك، فراحو يشتكون إلى الإله "أنكى" الحكيم الذى لم يستمع لشكواهم. فذهبوا إلى الإله الأم "نمو" التي خاطبت "أنكى" قائلةً:

"أي بُنَىّ، انهض من مضجعك واصنع أمراً حكيماً، إجعل للآلهةِ خَدَماً".

ففكر "أنكى" في الأمر وقال لأمه:

"إن الكائن الذى ارتأيتِ خلقه سيظهر للوجود، إمزجى حفنةً طينٍ من فوق مياه الأعماق، واصنعى

TAREK AHMED HASSAN

إنساناً على نفس صورة الآلهة، وكَوِّنى له أعضاءه، ولسوف تُقَدِّرين للمولود الجديد يا أماهُ مصيره."

أما قصة الخلق البابلية فتروى أن "مردوخ" إله بابل قد قتل الإله الأم "تعامة" صاحبة السلطة الشرعية التى دامت ألوف السنين. ومنذ ذلك الزمان أصبح الرجل سيداً يمتلك الأرض والمال والحيوانات والنساء والعبيد. وانتقلت السيادة من الأم التى تحكم بالعدل بين أبنائها، وتستمد شرعيتها من حبها لهم، إلى الأب الذى يمتلك أبناءه، ويستمد شرعيته من قوته وسيطرته عليهم. انسحب القاضى الذى كان يحكم بين الأحرار، وحل محله السيد الذى يمتلك العبيد.

وحيث أن القوة وحدها لا يمكن أن تُمَثِّلْ شرعيةً كافيةً، كان على "مردوخ" أن يُغَلِّفْ القوة بغلافٍ زائفٍ من الحب، وفى نفس الوقت كان عليه أن يُشَكِّكْ فى شرعية "تعامة" عن طريق التشكيك فى قدرتها على تحقيق العدل والمساواة بين أبنائها، وبذلك يضمن ألا يأتى إله آخر ويذيقه من نفس الكأس. إنه الشر يتنكر فى رداء الخير، أو إنه القهر الثقافى، أو الظلم الشرعى، أو كسر الإرادة، أو التوثيق

TAREK AHMED HASSAN

الأخلاقى لمبادئ لا أخلاقية، أو سَمِّهِ ما شئت. المهم هو أن هذا التقليد مازال مُتَّبَعاً حتى الآن. وإليك جزء من خطاب "مردوخ" فى مجمع الآلهة يُحَرِّضْ ضد "تعامة":

"تعامة التى حملت بنا تكرهنا، إنها مهتاجة غَضْبَى، وقد عقدت اجتماعاً فقصدها جميع الآلهة، حتى من خلقتموهم انضموا إليها، كلهم غَضْبَى يتآمرون ليلَ نهارَ بلا راحة."

ثم ذهب "مردوخ" ليتفاوض مع "تعامة":

"كفى ما رأينا من عجرفتك وتَكَبُّرِكْ، لقد شحنت البغضاءُ قلبك، فحرَّضتِ على القتال، وأوقعتِ بين الآباءِ والأبناء، ونسيتِ حب من أنجبتِ."

ولما فشلت المفاوضات معها، قابلها "مردوخ" فى ميدان المعركة، فهزم جيشها، وقضى عليها، وشق جثتها إلى نصفين، نصفها الأول شَكَّلَ منه السماء، والنصف الثانى شَكَّلَ منه الأرض. وأصبح "مردوخ" إله الأرض والسماء وبانى المدن وحاميها. وبعد أن صارت

TAREK AHMED HASAN

السلطة كلها فى يده، وقف مرةً أخرى يخطب فى مجمع الآلهة مستخدماً التبرير العقلى فقال:

"أريد منكم قول الحق وقَسَمِى لكم ضمان، من الذى خلق النزاع؟ من دفع تعامة للثورة؟ من أعَدّ للقتال؟ سلموا لى الذى خلق النزاع، فأعطيه جزاءه، وتخلدون للراحة."

فاضطروا جميعاً إلى النفاق. ورموا بالمسؤلية كلها على الإله "كينغو" زوج "تعامة" المهزوم فى المعركة:

"فأجابوا سيدهم مردوخ ملك الأرض والسماء: إن كينغو زوج تعامة هو من بدأ النزاع. فأمر مردوخ أن يأتوا بكينغو. فجاؤا به، وقيدوه، وقطعوا شرايينه، ومن دمائه جرى خلقُ البشر."

وبذلك أُعتُبرَ "مردوخ" رمزاً للنظام، وأُعتُبرَت "تعامة" رمزاً للفوضى. وأُعتُبرَ انتصار "مردوخ" على "تعامة" هو انتصار للنظام على الفوضى وبداية الحضارة والنظام.

TAREK AHMED HASSAN

ولكن "مردوخ" قد تسرَّع عندما أصر على تسلم القيادة قبل أن ينتهى من تهذيب عدوانيته غير المهذبة، فالعالم كان يتجه إلى النظام بدون خدماته. إن مردوخ فى الواقع هو إله زائف اغتصب السلطة بطريقةٍ غير عادلة. والنظام الذى وضعه مهتز منذ اللحظة الأولى. والقيم التى يفرضها على المجتمع تعتمد أساساً على القهر الثقافى والظلم الشرعى، ولا ترقى أبداً إلى مرتبة القيم المطلقة التى كانت "تعامة" رمزاً لها.

من هنا نفهم لماذا صار اضطهاد المرأة تقليداً مُتَّبَعاً منذ ذلك الوقت حتى الآن. فكلما زاد اضطهاد السلطة للرجل، كلما أطلقت يده أكثر فى عملية اضطهاد المرأة. فالمرأة هى المسئول الأول عن عملية تفعيل القيم المطلقة المثبتة جينياً عند الطفل. لهذا يجب أن تبقى المرأة خاضعةً ومؤمنةً بدونيتها حتى ينشأ الأطفال على القهر الثقافى مُبَكِّراً. لقد استمرت "تعامة" فى الصدارة أكثر من ثلاثين ألف عام نجحت خلالها فى تثبيت معظم القيم الأخلاقية

TAREK AHMED HASSAN

جينياً. أما حكم "مردوخ" فقصير، لا يزيد عمره عن سبعة آلاف عام حافلة بالقتل وسفك الدماء.

إن أحفاد "مردوخ" هم من أصابهم اليأس فى هذا الزمان، فأعدّوا أسلحة الدمار الشامل لكى تعينهم على تدمير حضارة بدأت فى الموعد الخطأ، واعتمدت على شرعيةٍ ناقصة، وكان أول ابتكاراتها هو القهر الثقافى الذى حاولت أن تصلح به خللاً لا يمكن إصلاحه. هذا الخلل لن ينتهى إلا إذا عادت "تعامة" إلى الحياة، وسلمت "مردوخ" السلطة برضاها، وقامت بمراجعة وتعديل كل ما يسنه من قوانين بصورة دورية للتأكد من أن مصدرها هو الحب والعدل والحرية، لا العدوانية والظلم والتسلط.

TAREK AHMED HASSAN

(28)

الفكر المصرى القديم

العجيب هو أن المعجزة التى لم تتحقق فى بابل قد تحققت فى مصر رغم أن الأسطورة المصرية أقدم كثيراً من الأسطورة البابلية. فتعامة المصرية "إيزيس" لم تسقط مثل "تعامة" البابلية. لهذا فقد توفر للدولة المصرية أساس أخلاقى متين جعلها ثابتة ومستقرة لفترة طويلة من الزمن بينما الدول من حولها تقوم وتسقط. ومع ذلك فقد أثبت القهر الثقافى مرونةً وصبراً وقدرةً عظيمة على التَكَيُّفْ، واستطاع أن يشق طريقه إلى مصر مثلما فعل فى كل مكان فى العالم.

إن الأخلاق الإنسانية كانت متأصلة فى الفكر المصرى منذ القِدَمْ. وقد عبر عنها المصرى القديم فى فكرة "الماعت" وهى الحق والعدل والصدق والاستقامة والنظام الذى يحمى الجميع. وتقول حكمة الماعت القديمة:

TAREK AHMED HASSAN

"الدولة موجودة لتحقيق الماعت. والماعت يجب أن تتحقق لكى يصبح العالم قابلاً للسكنى."

"الماعت نظام أخلاقى طبيعى محُكَّمْ سابق على القوانين والتشريعات. إنها المبدأ المُوَلِّدْ للقانون وليس القانون نفسه."

ويمكن القول أن حياة المصرى القديم كانت تدور كلها حول "الماعت". وقد صَوَّرَها فى صورة أنثى جميلة تلتصق ريشة النعام بغطاء رأسها. إنها رفيقة الإله الأكبر "رع" فى مركب الشمس بحيث يمكن اعتبارها الضوء الذى أحضره "رع" إلى العالم.

إن الآلهة الكبار أحفاد "رع" قد دخلوا فى صراع على السلطة مثلما يحدث فى كل مكان. ولكن الأسطورة المصرية لم تنته بانتصار القوة على الحق كما حدث فى الأسطورة البابلية. فالإله "ست" وهو المقابل المصرى للإله "مردوخ" فى الأسطورة البابلية، قد قتل أخاه الإله الشرعى "أوزوريس" وهو المقابل المصرى للإله "كينغو" فى الأسطورة البابلية،

TAREK AHMED HASAN

مستخدماً حيلةً حقيرة، ثم قَطَّعَ جثته إلى إثنين وأربعين قطعة ووزعهم على أقاليم مصر المختلفة.

ولكن الإلهة المصرية "إيزيس" زوجة "أوزوريس" وهى المقابل المصرى للإلهة البابلية "تعامة" بحثت عن أشلاء زوجها فى كل مكان فى عملية بطولية كبرى حتى نجحت فى تجميع أجزائه مرةً أخرى، ونامت معه ليلةً واحدةً، عاد بعدها أوزوريس إلى الموت، وحملت هى فى ابنهما الإله "حورس". بهذا جاءت "إيزيس" بوريث شرعى لعرش أبيه "أوزوريس". وعندما كبر "حورس" اشتبك مع عمه فى قتال عنيف لكى يسترد الشرعية المفقودة. وقد أبلى "حورس" بلاءً حسناً فى هذا القتال وهزم عمه واسترد السلطة.

أصبح "حورس" منذ ذلك الوقت رمزاً للانتصار على الشر و العودة إلى الشرعية ولو باستخدام القوة. وبقى "ست" رمزاً للشر وللقوة التى لا تستند إلى أى شرعية أخلاقية. أما "إيزيس" فقد أصبحت رمزاً للمرأة المكافحة التى تدعم زوجها ولا تستسلم للظلم والعدوان. أما "أوزوريس" الذى يمثل الشرعية المسلوبة، فأصبح إله العالم الآخر الذى يستقبل

TAREK AHMED HASSAN

الأموات وبجواره "الماعت" ممثلة الأخلاق الإنسانية، ليحاسبهم بالعدل على ما اقترفوه، فينصف المظلوم، وينتقم من الظالم، ويُصلِح فى كل فردٍ على حِدَة الخلل الذى تعرض له هو شخصياً فى يومٍ من الأيام.

يقول المصرى القديم فى "كتاب الموتى" الذى كان يُعِّدَهُ لكى يُدفَن معه فى قبره لكى يعينه أثناء الحساب أمام "أوزوريس" العظيم:

"إننى لم أترك أحداً يتضور جوعاً ولم أتسبب في بكاء أى إنسان. إننى لم أرتكب القتل ولم أسبب تعاسة لأى إنسان. إننى لم أغتصب طعاماً من قربان الموتى. إننى لم أخسِر مكيال الحبوب. إننى لم أنُقِصْ الميزان. إننى لم أغتصب لبناً من فم الطفل. إننى لم أطرد الماشية من مرعاها. إننى لم أضع سدّاً أمام المياه الجارية."

وفى كتابٍ آخر يقول:

"السلام عليك أيها الإله الأعظم إله الحق. لقد جئتك يا إلهى خاضعاً لأشهد جلالك. جئتك متحلياً بالحق ومتخلياً عن الباطل. فلم أظلم أحداً ولم أسلك

TAREK AHMED HASSAN

سبل الضالين. لم أحنث فى يمينٍ ولم تضلنى الشهوة فتمتد عينى لزوجة أحد من رحمى. لم تمتد يدى لمال غيرى. لم أنطق كذباً ولم أكن لك عصيّاً. إننى يا إلهى لم أجع ولم أبكِ أحداً. ما قتلت وما غدرت بل وما كنت مُحَرِّضاً على ذلك. إننى لم أسرق من المعابد خبزها ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنس شيئاً مقدّساً ولم أغتصب مالاً حراماً ولم أنتهك حرمة الأموات. إنى لم أبع قمحاً بثمنٍ فاحش ولم أغش الكيل. أنا طاهر وبرئ من الأثم فاجعلني يا إلهى من الفائزين."

وفى منتصف القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد كان الوزير "بتاح حتب" قد وصل إلى سن الشيخوخة، فقرر أن يسجل خلاصة الحكمة التى تعلمها فى كتابٍ أهداه لابنه كى يكون عوناً له فى الحياة. يقول الرجل:

- "الظلم موجود بوفرة، ولكنه لا يمكن أبدًا أن يستمر على المدى الطويل."

TAREK AHMED HASSAN

- "إذا كنت تعمل بجدٍ، وإذا كان نمو الحقول كما ينبغى، فذلك لأن الإله قد وضع البركة بين يديك."

- "لا تثرثر مع جيرانك، فالناس تحترم الصامت."

- "إن المستمع هو الذى يحظى بحب الإله. فلا تتحدث إلا عندما يكون لديك شئ يستحق أن تقوله."

- "كم هو رائع الابن الذى يطيع والده."

- "لا تلوم أولئك الذين ليس لديهم أطفال ولا تنتقدهم ولا تتفاخر بأن لديك أطفال."

- "لا تردد الشائعات ولا تستمع إليها."

- "القلب الكبير هبة من الإله، ومن يطع بطنه فهو يطيع عدوه."

- "يُعتَرفُ بفضل الرجل الذى يتخذ العدالة نبراساً له فينهج نهجها."

TAREK AHMED HASSAN

- "لا تكن متكبراً بسبب معرفتك، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم بلغ فى فنه حد الكمال."

- "إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغير القدر، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً، فلا تنسَ كيف كان حالُك فى الماضى، ولا تفخر بالثروة التى أتت إليك منحةً من الإله، فإنك لست بأفضل من أقرانك."

- "إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألنه عن شئ، لكن اقترب منه وتعامل معه على انفراد وامتحن قلبه، فإذا ما أفشى شيئا قد رآه، أو أتى أمراً يجعلك تخجل له، فعندئذ احذر منه ولا تتجاوب معه."

- "إذا كنت رجلاً ناجحاً، وَطِّدْ حياتك المنزلية، وأحبب زوجتك."

- "لا تكن شرهاً فى القسمة، وانبذ الطمع حتى فى حقك، ولا تطمع فى مال أقاربك، فإن الالتماس

TAREK AHMED HASSAN

اللِّين يجدى أكثر من القوة، وإن القليل الذى يؤخذ بالخداع يوَّلِد العداوة."

لهذا استمرت الدولة المصرية قويةً منذ وحدها الملك مينا عام 3200 قبل الميلاد. كان المصريون أرفع خُلُقاً وأكثر تهذيباً وأقل عدوانيةً من الشعوب الأخرى. كانت أحوالهم المادية مُيَسَّرةً نسبياً بفضل نهر النيل. وكانوا يحبون حكامهم الذين يستمدون شرعيتهم مباشرةً من "حورس" العظيم. وكانت الأخلاق الإنسانية تحتل مرتبةً أعلى من القانون. وكان الأمل فى العدل والإنصاف يمتد إلى ما بعد الموت والحساب أمام "أوزوريس". وكان هناك احترام للمرأة مستمد من روح "إيزيس" الخالدة.

هل معنى ذلك أن مصر كانت خاليةً من القهر الثقافى؟ كلا، فالقهر الثقافى قد تسلل إلى المصريين من خلال السلطة الإدارية والسلطة الدينية فى الدولة، فأفسدهم حتى قضى على دولتهم فى النهاية.

TAREK AHMED HASAN

(29)

بين استعباد أول إنسان و تحرير آخر إنسان

عندما بدأ القهر الثقافى، ظهرت السياسات التسلطية والأفكار اللاعقلانية والاضطرابات النفسية والتعثر. واحتار الفلاسفة والأنبياء من أجل عقلنة ذلك الوضع غير المعقول. إن الرغبة المستحيلة فى إضفاء الشرعية على وضع غير شرعى هى التى قادت الإنسان إلى حالة نصف الجنون التى نراها الآن، والتى مازال يقذف بها كل منا إلى الآخر دون جدوى.

لقد كان الإنسان مُسَخَّراً للعمل فى الحقل طوال النهار لحساب إنسان آخر يسمونه سيداً أو ملكاً أو إلاهاً. وفى المساء كانوا يلقون عليه دروساً فى الطاعة والرضاء بالأمر الواقع. هذا الإنسان هو الذى ظهرت على جهازه النفسى بوادر أول مقاومة للقهر الثقافى، مما أدى إلى انقسام فى شخصيته ما بين قوة شعورية تحاول التكيف مع ذلك الوضع غير العادل، وقوة

TAREK AHMED HASSAN

لاشعورية ترفضه. هنا بدأ التعثر. وقد قمنا بتحليل تلك الظاهرة بالتفصيل فى كتابنا: (الخير والشر).

إن بداية التعثر هو أمر شديد الأهمية بالنسبة للإنسان. إنه تاريخ فقدان الإنسان لنصف عقله الذى مازال يبحث عنه حتى الآن. فاستعباد أول إنسان وكسر إرادته تحول إلى فيروس يُعدي جميع البشر. والقضاء على الفيروس لن يتم إلا بعد تحرير آخر إنسان. وإن كل المذاهب الدينية والعلمانية لم تنجح فى ذلك لأن الفيروس استطاع دائماً اختراقها منذ يوم ولادتها. وإذا كنت ترحب بتطبيق هذه المعانى على كل الأمور باستثناء أمر أو اثنين لهم مكانة خاصة فى قلبك وفى عقلك وفى ضميرك، فثق أن هنا بالذات يرقد فيروس القهر الثقافى.

إن جوهر الأديان كلها بلا استثناء يتلخص فى أنك بعبادة الإله تتخلص من عبادة السلطة. إنها أصلاً دعوة بدأت بمقاومة القهر الثقافى وانتهت بالتصالح معه. فالاختبارات الحقيقية على أرض الواقع وأعداد الضحايا المهولة التى تسقط كل يوم نتيجة

TAREK AHMED HASSAN

النزاعات الدينية تؤكد الاستيطان الرهيب لفيروس القهر الثقافى داخل كل المذاهب الدينية.

أما المذاهب العلمانية فقد تقدمت إلى الساحة بدعوى قدرتها على إنجاز العمل الذى فشلت فيه المذاهب الدينية، والنتيجة واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

عدوك هو فيروس القهر الثقافى الموجود داخل ثقافتك بقدر لا يقل عن تواجده داخل ثقافات الآخرين. وهو ما كان ليتواجد بهذه القوة لولا دعمك ودعم الآخرين له أثناء خلافاتكم التى ينجح هو فى إثارتها ثم يتغذى عليها. أما طريقة الفيروس المفضلة للتكاثر فهى أن يجعلك تنسخه فى عقول أولادك.

أنت والمتسلط والآخرون تقيمون الاحتفالات الدينية والعلمانية فى المساء بمنتهى الوقار والخشوع. وعندما تشرق الشمس تعودون إلى الواقع الذى تعودتم عليه. فالمتسلط يستعبدك مقابل أن أن يفسح لك الطريق كى تستعبد زوجتك وأولادك ومرءوسيك،

TAREK AHMED HASSAN

ثم تكذبون على بعضكم بعضاً وتؤكدون أن هذا الوضع غير المعقول، معقول !!!. وعندما تزداد الاضطرابات النفسية والجرائم والحروب تلقون باللائمة على أى شئٍ سوى هذا الاتفاق الشيطانى الذى وقعتموه تحت رعاية فيروس القهر الثقافى.

أخيراً من المهم أن نذكر أن فهم الإنسان بهذه الطريقة ليس دعوة للتشاؤم. على العكس من ذلك، فالإنسان قد حقق إنجازات ضخمة بالرغم من كل ما يتعرض له من قهرٍ ثقافى. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يملك الأساس المتين الذى يؤهله للتغلب على مشكلاته خلال زمنٍ طال أو قصر. إن كل الاضطرابات التى يعانى الإنسان منها تعبر عن اشتباكه المستمر مع وضع لا يتفق مع طبيعته الإنسانية أكثر مما تُعبر عن استسلامه له.

TAREK AHMED HASSAN

(30)

مقاومة القهر الثقافى

بعد تغيير العدسة التى تنظر بها إلى العالم ربما تشعر مثل الأعمى الذى أبصر فجأة فرأى أن كل ما كان يعرفه زائفاً، وأن ما كان يعتبره عادياً هو فى الواقع نصف جنون، فتمنى لو عاد أعمى مرةً أخرى حتى لا يواجه الحقيقة.

ولكن الزمن لا يعود إلى الوراء. ومساهمتنا من أجل التغيير لابد منها. فالتطوير والتغيير هم شغل العلماء، بينما التبرير والتأويل هو الشغل الشاغل للجهلاء.

يجب أن ينتهى الزمن الذى ينظر فيه الجاهل إلى العالم المرهق بشماتة لعجزه عن الوصول إلى حقيقة مطلقة. إن الكتالوج الذى جاء مع الإنسان إلى الدنيا يحتوى على حقائق مطلقة. علينا فقط أن نفك شفرة ذلك الكتالوج. آن الأوان للفلسفة أن تتخلى عن خجلها وتبدأ عملها من حقائق لا من فروض دون أن تخشى شيئاً.

TAREK AHMED HASSAN

إن العقل الموضوعى الذى يبدأ عمله من فرضيات عادةً لا يصمد أمام هجوم العقل المبرر الذى يبدأ عمله من نصوص ثابتة، رغم أن كل هذه النصوص تعلن صراحةً أنها تدافع عن المبادئ الإنسانية كالحق والعدل والحرية. هذا يعنى أن هذه المبادئ هى مرجع أعلى تستمد منه كل النصوص شرعيتها.

حان الوقت للعقل الموضوعى أن يبدأ عمله من حقائق هى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الثقافى. الخجل الذى كان يرتبط بالفلاسفة مقابل جرأة الكهنة كان مرجعه الدقة والأمانة الشديدة التى يتحلى بهما الفيلسوف رغم نقص المعلومات التى بين يديه. واليوم توجد معلومات كافية.

إن حجتهم فى فرض الوصاية على عقولنا هى أن العقل يُضَلِل. ولهم الحق فى ذلك لأنهم لا يعرفون إلا عقولهم التبريرية المُضَلِلة. ولكن هناك عقولاً موضوعية أبعد ما تكون عن الضلال. فالعقل الموضوعى يعمل بحرية، أما العقل التبريرى فيبدأ العمل من خلال شروط تسلطية مسبقة. لهذا فإن العقل

TAREK AHMED HASSAN

التبريرى لا يرى العقل الموضوعى ولا يشعر بوجوده. وإن التشكيك فى النظريات العلمية يقوى من حجته.

نحن نحتاج إلى أن نستمد سلوكنا من القيم الإنسانية حتى لو تعارض ذلك مع التوجهات المنسوبة للمذاهب الدينية أو العلمانية ذات الدعم الفرويدى أو الداروينى، لأن كل واحد من هذه المذاهب ببساطة شديدة يحتوى على بذور القهر الثقافى مخبأة بعناية داخل غلافٍ من القيم الإنسانية المُرَوَّضة. إن الواقع هو خير حَكَمْ، فالمذاهب الدينية أو العلمانية لم تمنع القهر. بل إن القهر هو حليفها المُفَضَّلْ الذى يستفيد منها أكثر مما يستفيد من أى شئٍ آخر.

إننا سواء فهمنا هذا الأمر أو لم نفهمه، فهناك بالفعل من يفهمه جيداً ويستعمله ضد مصلحتنا ويجنى من وراء ذلك الأرباح الطائلة. ولقد أثبتت قوى القهر على مر العصور أنها أكثر دهاءً من جموع العبيد المغلوبين على أمرهم. كما أنها أكثر مرونةً وتفاعلاً مع الأحداث بحيث تستطيع تسليم السلطة عندما

TAREK AHMED HASAN

يشتد التيار ثم تستردها مرةً أخرى عندما ينحسر المد.

نحن مقتنعون أننا لا نستحق إلا القهر لأن قوى القهر قد عودتنا على ذلك، وبدأت معنا مبكراً جداً منذ الطفولة، وسممت الهواء الذى نتنفسه. ولكن إذا ما تم تعديل مسار الحضارة بما يتفق مع طبيعتنا الإنسانية فإن استجابتنا سوف تكون سريعة، وسوف نحقق نتائج أعلى من كل التوقعات.

إن الإنسانيين هم صُنَّاع الحضارة، وإن قوى القهر هم من يجنى الثمار. فالأحرار يستطيعون عمل المعجزات. إن عطاء الأحرار يمكن أن يكون أضعاف عطاء العبيد. فى هذه الحالة تكون الغنائم كافية للجميع. أما القهر فيتجه بالبشر نحو الفناء. والدليل على ذلك هو أساطير الدمار والإبادة الجماعية التى انتشرت ثم وجدت من يعمل على تحويلها إلى حقائق. إن هؤلاء الذين يدّعون أنهم حماة الحضارة هم أنفسهم من يقودون الحضارة نحو الانقراض. هل التسريع بالكارثة أفضل من انتظارها؟ أم أن كل فريق يعتقد أنه سوف يكون الناجى الوحيد؟

TAREK AHMED HASSAN

القهر يدّعى أنه يحميك من قهرٍ آخر. ولكن إذا اختفى القهر والقهر الآخر فإنك لن تحتاج إلى حماية. ومهما كان القهر قوياً فإن تكلفة مقاومته أقل كثيراً من تكلفة الاستسلام له. فالأنبياء لم يقولوا: اقهروا المؤمنين باسم الدين. والعلماء لم يقولوا: اقهروا التلاميذ باسم العلم.

هل من طريقة لإقناع قوى القهر نفسها بعدم شرعية القهر؟ وأن الوقت قد حان لبدء صفحةٍ جديدة. هل يمكن أن يعيد الأغنياء بمحض إرادتهم للفقراء حقوقهم المسلوبة؟ كيف يمكن أن يتحول الصراع بين الأغنياء وبعضهم البعض إلى منافسة من أجل تحسين حال الفقراء؟ وكيف يمكن أن يحدث ذلك بقناعةٍ حقيقية وبدون ثوراتٍ دموية أو قهرٍ عَكسىٍّ؟

أفكار مثل هذه عادةً ما يُنظر إليها بعين الاحترام قبل أن يتم تجاهلها تماماً والعودة إلى العالم الواقعى المتوحش. إنها فى نظر العامة أفكار طيبة تصدر من إناس طيبين يعيشون فى الخيال ولا يدرون شيئاً عن الواقع.

TAREK AHMED HASSAN

نحن بالفعل لا نستطيع الانتظار حتى تتحقق الفكرة الرومانسية الخاصة بتغيير العالم. لا يمكن أن ننتظر حتى يذهب مندوباً جديداً إلى المتسلط ويقنعه بفكرة تحرير العالم كله، لا تحرير فئة صغيرة بعينها ثم استعمالها من أجل استعباد الآخرين. وحتى لو ذهب هذا الرجل إلى المتسلط مزوّداً بدعم الملايين من البشر فإن المتسلط لن يستجيب. إنه يدرك أن فيروس القهر الثقافى يُحكِم سيطرته على نفوسنا، وأن الحرية بالنسبة لنا تعنى الفوضى والانحراف والتردد والتمرد ثم الندم والسقوط تحت أقدام متسلط جديد. إن المتسلط نفسه لم يكن متسلطاً طوال الوقت. لقد كان هو الآخر عبداً متعثراً قبل أن يستولى على العرش بالقوة ثم يستخدم القهر الثقافى لبناء مملكته.

والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن القارئ العادى ممن قد يستوعب تلك الأفكار هو: لقد فهمت من كلامك أن وباء القهر الثقافى أقوى من أى مقاومة، وأننى بالفعل متورط لدرجة لا يمكن معها التراجع، وأن تاريخى قد حدد مستقبلى. على أى حال، إن لى على الاقل مكان

TAREK AHMED HASSAN

فى هذا العالم المتوحش، ولست أدرى إلى أين يأخذنى عالمك، ماذا تريد منى أن أفعل بالضبط؟

الإجابة هى أنك تستطيع أن تجد نفسك متى بحثت عنها فى المكان الصحيح. يجب أن تنزع القناع عن كل علاقات التسلط والخضوع التى تحيط بك. فى هذه الحالة سوف تجد مشاعرك الطيبة راقدةً تحت غلافٍ من المشاعر العدوانية. وعقلك الموضوعى منتظراً خلف حائطٍ من العقل الغيبى. وضميرك المتسامح محبوساً داخل سجنٍ من الضمير المتسلط. هنا سوف تزيح عن كاهلك حملاً ضخماً كان يستنزف طاقاتك ويرهقك لحساب أناسٍ آخرين ربما لم تلتق بهم مرةً واحدةً فى حياتك. وعندما تتحرر طاقتك المستنزفة سوف يتحول تلقائياً منحنى الفشل فى حياتك إلى منحنى نجاح.

إن كل منا يستطيع أن يفعل شيئاً فى عالمه الصغير. نحن نستطيع أن نصنع عالمنا الإنسانى الخاص جداً داخل هذا العالم الكبير المُصَمَّمْ على مزاج قوى القهر. إننا نحتاج إلى ذلك بدليل تزاحمنا المستمر أمام العيادات النفسية والعتبات الدينية والمحاكم،

TAREK AHMED HASSAN

ناهيك عن تحملنا لقلة أبواب الرزق وتفشى المظالم والحروب.

أما إذا كانت الصورة قاتمة والنظر إلى أعلى يصيبك بالدوار، فانظر إلى أسفل حيث يوجد الأطفال الصغار الذين يولدون أحراراً قبل أن يصيبهم الوباء. هل أتيت بأطفالك إلى الدنيا لكى يسقطوا تحت أقدام الفيروس بنفس السهولة التى حدثت معك؟ إن جزءاً كبيراً من أوراق اللعبة مازال فى يدك. إن عملية وصول الفيروس إلى أولادك فى السنوات الأولى من العمر تمر من خلالك. لذلك فإن إمكانية وقاية أطفالك من العدوى تبدأ بك أنت. على الأقل يمكنك أن تُسَلِّمَهم إلى المجتمع الموبوء فى حالة أقوى كثيراً مما تظن. يمكنك التأكيد على القيم الإنسانية بداخلهم والعمل على تنقيتها من كل الشوائب. يمكنك أن تقوم مقدماً بتذليل العقبات الاجتماعية التى تواجههم وتحرص على وقايتهم من جميع علاقات التسلط والخضوع من قبل أن تبدأ، فإن هذه العلاقات هى السمة الرئيسية التى لا يخلو منها أى قهر ثقافى. يمكنك أن تراقب بناء شخصيتهم

TAREK AHMED HASSAN

الإنتاجية التى تتكون من مشاعر طيبة وعقل موضوعى وضمير رحيم. وفوق كل ذلك يجب أن تُعِدَّهم بالتدريج لكى يَتَسَلَّموا حريتهم كاملةً فى الوقت المناسب ويعرفوا كيف يستخدمونها.

لا تتركهم يتأثرون بأيةِ أفكار شائعة لها مضمون قهرى أو تسلطى مهما تسلحت بغطاء دينى أو قانونى. يجب أن تُعَلِّمَهم كيف يتصدون لأى هجوم قهرى قد يتعرضون له. يجب أن يكون هدفك هو أن يبدأوا من حيث انتهيت أنت، لا أن يعيدوا تكرار تجربتك الفاشلة. يجب أن تجعل عملية دخولهم إلى بوابة التعثر أصعب كثيراً من عملية خروجك أنت منها. كما يجب أن تجعلهم يشعرون بصدق نيتك وقوة عزيمتك وعدالة قضيتك حتى يتعاونوا معك لما فيه صالحهم.

وما دمنا لا نملك بعد علاجاً فعالاً لوباء القهر الثقافى، فإن عملية تطعيم كبرى لكل أولادنا ضد الفيروس يجب أن تبدأ فوراً. وقبل كل ذلك يجب أن يكون لدينا تشخيص واضح ومحدد للأعراض التى يسببها، وهو ما نحاول القيام به بالفعل فى هذه

TAREK AHMED HASSAN

الدراسة. فإذا كانت قوى القهر قد وضعت خططاً طويلة الأجل للسيطرة التدريجية وطبقتها بنجاح، فلابد أن هناك أيضاً خططاً طويلة الأجل للتحرر التدريجى يمكن تطبيقها بنجاح.

المؤكد هو أن القلائل الذين تأثروا بهذه الأفكار قد تحسنت أحوالهم المعيشية بصورةٍ مذهلة، وتجنبوا الفشل تلو الآخر فى حياتهم الزوجية أو النفسية أو المهنية. بل إن الكثير منهم قد استطاعوا أن يحموا أنفسهم وأولادهم من الانزلاق وراء الأفكار المشبوهة والانحرافات التى تنتشر داخل المجتمع. والغريب هو أن ذلك قد أدى إلى تحسن أحوالهم المادية أيضاً، وهو الأمر الذى كانوا يسعون إليه دائماً باستخدام ثقافة القهر. الناس بحكم طبيعتهم الإنسانية لديهم استعداد فطرى للاتجاه نحو كل ما هو طيب إذا ما وجدوا طريقةً مناسبةً لمقاومة القهر.

إن قراراً واحداً خالى من القهر يمكن أن يقلب منحنى الفشل فى حياتك ويحوله إلى منحنى نجاح. إن امتلاء القلوب بالحب يقضى على الكراهية. وامتلاء العقول بالعلم يقضى على الجهل. وامتلاء الضمائر

TAREK AHMED HASSAN

بالرحمة يقضى على القسوة والتسلط. إن الأيدى التى تدفع بعضها بعضاً إلى أسفل يمكن أن تتحول إلى قوة دافعة إلى أعلى. دعك من الماضى فقد لَوَّثَ الفيروس الجميع. إن التسامح مع نفسك ومع الآخرين هو الطريق الذى يجمعكم مرةً أخرى حول هدف محدد هو حماية أولادكم من ملاقاة نفس المصير.

TAREK AHMED HASSAN

المراجع

الإنتخاب الثقافى، أجنر فوج، ترجمة: شوقى جلال.

قصة الحضارة، ويل ديورانت، ترجمة: د. زكى نجيب محمود وآخرين.

صدام الحضارات، صمويل هنتنجتون، ترجمة: طلعت الشايب.

نهاية التاريخ، فرانسيس فوكوياما، ترجمة: حسين أحمد أمين.

النبوءة والسياسة، جريس هالسل، ترجمة: محمد السماك.

البشرية تفقد الذاكرة، إيمانويل فليكوفسكى، ترجمة: فاروق عبد القادر.

الأنا والهو، سيجموند فرويد، ترجمة: محمد عثمان نجاتى.

مستقبل وهم، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى.

الحب والحرب والحضارة، سيجموند فرويد، ترجمة: د عبد المنعم الحفينى.

قلق فى الحضارة، سيجموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشى.

مختصر التحليل النفسى، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى.

النظرية العامة للأمراض العصابية، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى.

علم نفس الجماهير، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى.

محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، سيجموند فرويد، ترجمة: عزت راجح

التحليل النفسى للهيستيريا، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى.

ثورة الأمل، إريك فروم، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.

المجتمع السوى، إريك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى.

الإنسان من أجل ذاته، إريك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى.

تشريح التدميرية البشرية ،إريك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى.

التملك والكينونة، إريك فروم، ترجمة: محمد سبيلا.

الدين والتحليل النفسى، إريك فروم، ترجمة: فؤاد كامل.

أزمة التحليل النفسى، إريك فروم، ترجمة: طلال عتريسى.

TAREK AHMED HASAN

الخوف من الحرية، إريك فروم، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد.

ما وراء الأوهام، إريك فروم، ترجمة: صلاح حاتم.

الإنسان المستلب وآفاق الحرية، إريك فروم، ترجمة: د حميد لشهب.

مدخل إلى سيكلوجية الإنسان المقهور، د مصطفى حجازى.

الجديد فى الإنتخاب الطبيعى، ريشارد دوكينز، ترجمة: مصطفى ابراهيم فهمى.

الجين الأنانى، ريتشارد دوكينز ، ترجمة: تانيا ناجيا.

العلم والحقيقة، ريتشارد دوكينز، ترجمة: مصطفى ابراهيم فهمى.

أزمة نظام، د عبد الحى زلوم.

الاقتصاد العالمى الخفى، لوريتا نابوليونى، ترجمة: لبنى حامد عامر.

الإنسان الأدنى ، على حرب.

الإنسان هو المقياس، روبن آبيل، ترجمة: مصطفى محمود.

الحكم بالسر ، جيم مارس، ترجمة: محمد منير إدلبى.

الخمسون سنة المقبلة، جون بروكمان، ترجمة: فاطمة غنيم.

علم النفس التطورى، دافيد باس، ترجمة: مصطفى حجازى.

الطبيعة البشرية والسلوك الانسانى ، جون ديوي ، ترجمة: محمد لبيب النجيحى.

علم الاخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة: جلال الدين سعيد.

العقائد والذاهب، عباس محمود العقاد.

عن الحرية أتحدث، د زكى نجيب محمود.

تاريخ موجز للزمن، ستيفن هوكنج، ترجمة: مصطفى ابراهيم فهمى.

سيكولوجية الجماهير، جوستاف لوبون، ترجمة: هاشم صالح.

شبكة الإنترنت.

TAREK AHMED HASAN

نبذة عن الكاتب

الكاتب هو طارق أحمد حسن، مهندس مصرى ناجح من مواليد الأسكندرية 1957، متزوج وأب لثلاث بنات.

الكاتب يعتبر نفسه باحثاً فى الفلسفة غير محترف، ولا يهدف إلى الربح. وهو يؤمن أننا نملك اليوم وسائل لفهم الطبيعة الإنسانية جيداً لم تكن متوفرة من قبل.

هذا الكتاب هو المحاولة الرابعة للكاتب. وهو يأمل من خلاله أن يفتح آفاقاً جديدة أمام القاريء، تساعده على التغلب على نقاط ضعفه، واكتشاف قدراته المهملة، وتحرير إرادته المقهورة، واسترجاع حريته المسلوبة.

TAREK AHMED HASSAN

صدر للكاتب

- التوازن الزائف 2009
- عصر الحكمة 2013
- الخير والشر 2014
- القهر الثقافى 2015

TAREK AHMED HASSAN

جميع حقوق النشر محفوظة للكاتب

البريد الألكترونى

ta_ah_ha@hotmail.com

الصفحة الرسمية للكاتب

https://www.facebook.com/tarekahmedworks

TAREK AHMED HASSAN

رقم الإيداع

2015/9642

الترقيم الدولي

9789779030722

TAREK AHMED HASSAN

الإنسانُ
ذلكَ المخلوقُ الرائع
ذو الإمكانياتِ الهائلةِ
قد تم امتهانه من قِبَل إخوانِه
الذين فرضوا أنفسَهم أوصِياءَ عليه
وزرعوا فيروس القهر الثقافي داخلَ ضميره
يُزَيفُ الحقائقَ
ويقلبُ الصورة تمامًا
ويستعبدُهُ
وهو في هذهِ الحالةِ
إمّا راضٍ بالقهرِ الذي يتعرضُ له
خوفًا أو طمعًا
وإما مُغيبٌ
لا يشم رائحة الخطر.

طارق أحمد حسن